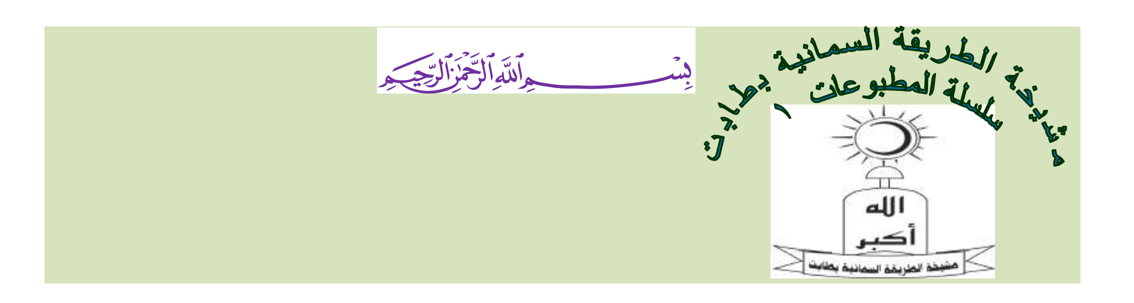




الوصية

تأليف الشيخ

عبد المحمود الحفيان بن الشيخ الجيلي





تأليف الشيخ/

عبد المحمود (الحفيان) بن الشيخ الجيلي

قدم له بكتابة المدخل الأستاذ عبد الجبار المبارك الحفياني

المدخل

الحَمْدُ لله الَّذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ. وصلَّى الله عَلَى سَيِّدِنا وَرَسُولِنا الكَرِيم محمدٍ نَبيِّ الهِدَايَةِ والبِشْر والرَّحْمَاتِ، وسَلَّمَ تَسْليماً يَدُومُ بدَوام السَّلام المُؤمِنِ لِحَبيبهِ بِأكْرَمِ الدَّرَجَاتِ.

فِي سماءِ الأمجادِ لاح شُعَاعٌ ظَلَّلَتْهُ عِنايَةُ الرَّحْمَنِ
نورُه أَسْعَدَ الحَيَاةَ بِدُنْيَا مِنْ صَفَاءٍ وَفَرْحَةٍ مِنْ أَمَانِ

كَوْكَبٌ نُوْرِيٌّ لَمَعَ فِي سَمَاءِ التَّصَوُّفِ الإِسْلامِي فَكَانَ:

عَبْقَرِيَّ[1] الضِّياءِ تَعْشَى[2] بهِ الشَّمْسُ وَيرتَدُّ طَرْفُهَا عَنْهُ حَاسِر
شَدَهَ الغَيْبَ[3] فاسْتَسَرَّ لِنَجْوَاهُ وَرَاعَ النُّهَى وهَاجَ السَّرَائِر
خَطْوُهُ رَحْمَةٌ ولُقْيَاهُ سَعْدٌ وضِيَاءٌ عَمَّ الجدُودَ العَواثِر
أَوْقَدَ الرُّوْحَ فِي السَّرَائِر نُوراً وهَدَى هَدْيُهُ النُّفُوسَ الطَّواهِر

١/ **عبقري**: نادر.

٢/ **تعشَى**: يضعف بصرها – تبهر.

٣/ **شَدَهَ**: يقال: شَدَه فلاناً وأَشْدَهه: أيْ شَغَلَهُ وحيَّره وأَدْهَشَهُ، والمَشادِهُ: المَشَاغِلُ، والاسمُ: الشَّدْهُ، ويُحَرَّكُ، ويُضَمُّ.

ولا جَرَمَ فَهُوَ شَمْسُ حَقيقَةٍ باهِرَةٍ، تَبَدَّت فِي عَصْر سَمَاءِ الولايَةِ، ونَغَمٌ أَثِيرِيٌّ مِنْ أَنْغَام الوُجُودِ الحَقِّ تَشَنَّفَتْ[1] بهِ آذَانُ القُلُوبِ، فَسَرَى النَّغَمُ الإلهيُّ فِي حَنَايَاهَا سَرَيانَ المَاءِ فِي الوُرُود، يُكْسِبُها حَيَاةً ونَضَارَةً وَجَلاءً، وَقَبَسٌ مِن النُّور الإلهِي أَضَاءَتْ بهِ وِهَادُ[2] النُّفُوس وأَغْوَارُ العُقُول. وَرَوْحٌ مِنْ الحَقِّ يَحْمِلُ بَيْن ثَنَايَاهُ طَلَّ الرَّحْمَةِ لِيَتَعَهَّدَ بِهِ بَذْرَ شَجَرَةِ المَعْرِفَةِ فِي قُلوبِ المُحِبِّين، يَرْعَاها فِيهم حَتَّى ارتَكَزَتْ عَلَى الثَّابتِ مِنْ أَمْر الحقِّ وقَرَّتْ، فصَار أصلُها ثابتًا في أرض القُلُوب وفرْعُها في السَّماء، تُؤتي أُكُلَها مِنْ رقائق المعَارفِ وَدقائق الحَقائق كُلَّ حينٍ بإذن ربِّها إكراماً لمنْ صَدَق إيمانُهُ وكان من المتَّقين؛ غَوْثُ العبَاد، وقُطبُ رَحَى الولايَة الدَّائرةِ في فَلَك الَحقيْقة، مَنْ صَدَرَتْ منْهُ المشَاربُ، وانْتَهَتْ إليْه المَراتبُ، مَبْدَأُ الرَّاحَةِ النَّفْسِيَّة، وبحْرُ الحَقَائق الإلهيَّة، إكْسيرُ العارفيْن برَقَائق الإشَارَات الغَيْبيَّة، وَعلَمُ أَعْلاَم الذَّاخرين بلَطائِفِ الأسْرَار الجَبَرُوتيَّة، خَطيبُ عرائِسِ المَجالِي في غَيْب ذات الهُو المكْنُون، وصاحبُ الإكليل منْ عرائَس الغيب المَوضْوُنَة على سُرُر تقابُل الرِّضَا بجَمَال جلالِه الدَّائم المَصُون، ميمُ مَلَكُوت جمع الجمع في حَضْرَة الذَّات، ونُونُ ناسُوتِه في حَضْرَة الفَرْق الثاني بالهدايَة والإرْشاد، تأَسِّيًا بنبيِّنا الكَريم سيِّدنَا مُحَمَّد عَلَيْه السَّلاُم والرَّحمةُ

---

[1]/ **تشنَّفتْ:** الشَّنْفُ: من حُلِيّ الأُذن، وهو ما يجعل في أعلاها، والقرط ما كان في أسفلها.

[2]/ **الوِهَاد:** جمعُ وَهْدَةٍ، وهي ما انخفض من الأرض.

والبركات؛ إنَّهُ مَنْ أَشَعَّتْ شَمْسُ عَصْره المُحِيطَةُ بدَائِرَةِ الأَكْوَان، سَيِّدي مَحْمُودُ القُدُوم، مُحَمَّدُ الذِّكْر، صَاحبُ الأَيْدِ والبُرْهَان- المَوْسُومُ بَيْنَ أَهْل الوَلايَة- بالحَفْيَان.

وُلِدَ ﵁ في يَوْم الأَرْبِعَاء ٢٨ ربيع أول عام ١٣٣٧ هـ. مَا يُوافقْ ١ يَنَاير عَام ١٩١٩ مـ وانتَقل إلى جوَار رَبِّه في يوِم الجُمُعَةِ ٩ شَعْبَان عام ١٣٩٣ هـ. مَا يُوافِق ٧ سبتمبر عام ١٩٧٣ مـ. ولَهُ من العُمْر ستَّةٌ وخَمْسُوَن عَاماً قَضَاهَا في صَالِح الأَعْمَال. وَقَدْ وُرِيَ جُثْمَانُهُ الطَّاهرُ رضي الله عَنْهُ بطَابَتْ بِقُبَّة والِدِهِ – سَيِّدي الشيخ عَبْد القَادر الجَيْلي خَليفَة سَيِّدي الشيخ عَبْد المَحْمُود الشيخ نُور الدائم رضي الله عَنْهُم وَعَنَّا بِهم أجْمَعِين.

وَبَعْدُ أَيُّها القَارئُ مِنَ المُحِبِّين: لئِن غابَ {مَحْمُودُ الجَسَدِ} عَنْ نَاظِرَيْكَ بِسَمْتِهِ[1] الَّذي يُشِيعُ الرَّاحَةَ فِي النُّفُوسِ، وطَلْعَتِهِ الأَلِقَةِ[2] التي تَغْرسُ الهَيْبَةَ فِي الجَنَان، مُجِيبًا دُعَاءَ اللهِ، مُحَقِّقاً لِوَعْدِهِ بَعْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِهِ، سَالِكًا لطَرِيقِ مَنْ سَبَقَ، عَلَى سُنَّةِ رَبِّ العَالَمِين، ولَنا العَزَاءُ فِي سَيِّد الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، والَّذي خَاطَبَهُ الحَقُّ بقَولِه: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[3] لَئِنْ مَضَى "مَحْمُودُ الجُثْمَان" رَشْيداً –عَزيزي– فإِنَّ مَحْمُودَ

١/ بِسَمْته: السَّمْتُ: حُسْن الهيئة والمَنْظَر.

٢/ الأَلِقَة: اللامعة البهية.

٣/ الزمر: ٣٠.

المَعْنـىَ، مـازَالَ مَـاثِلاً أَمَامَـكَ بِكُـلِّ رَوْعَتِـهِ وَجَمَالِـهِ وَجَلالِـهِ، وَلِـئِن فَاتَـكَ التَّمَتُّعُ بِرُؤيَةِ مَحْمُودِ الشَّخْصِ، فإِنَّ مَحْمُودَ الفَضْـلِ، مَحْمُودَ الأَخْـلاَق، مَحْمُودَ "الكَرَمِ"، مَحْمُودَ "السَّمَاحَةِ"، مَحْمُودَ "الوَقَار"، مَحْمُودَ "الأنَـاةِ"، مَحْمُودَ "الحِلْم"، مَحْمُودَ "الصَّبْر"، مَحْمُودَ "الإِيثَار"، مَحْمُودَ "الطَّوِيَّـةِ"، مَحْمُودَ "الطَّرِيق"، مَحْمُودَ "اللَّيْلِ"، مَحْمُودَ "التُّقَـى"، مَحْمُودَ "الإِرْشَـادِ"، مَحْمُودَ "الهُدَى"، مُحَمَّدَ "الذِّكْر"، يُطِـلُّ عَلَيْكَ مِنْ خِـلاَل أَسْـطُرِ هَذِه الوَصَـايا، لِيَـرْبِطَ بِالحُـبِّ عَلَـى قَلْبِـكَ وَلِيُنِيـرَ لَـكَ بَعْـضَ مـا يُظْلِـمُ مِـنْ طَرِيقِكَ، يُرشِدُكَ إِلى السَّنَنِ القَوِيم والطَّرِيقِ المُسْتَقِيم –مِنْ بَيْنِ شِعابِ الحَيَـاةِ التـي تأَشَّـبَتْ[1] جَوانِبُهـا بتُرَّهَـاتِ[2] الأَبَاطِيـلِ، فِـي كَلِـمٍ مَسْـبوك، ودِيبَاجَـةٍ نَاصِـعَة، وجَرْسٍ قَوِيٍّ أَخَّـاذٍ، ومَنْطِقٍ قَوِيم، وَمَعْنًـى سَامٍ ورُوحٍ وَثَّابٍ إِلى الكَمَالاَتِ، يَدْفَعُ المُتَابِّي مِنَ العُقُول، والنَّادَّ[3] مِنَ الأَفكَار إِلـى الإِيمانِ دَفْعًا، كَمَا يَرْفَعُ النُّفُوسَ المُطمئِنَّةَ بِذِكْرِ اللهِ إِلى تَمْجِيد المَذْكُور والثَّبَـاتِ عَلَـى مَبْدأ التَّوْحِيدِ، راقِيًا بهَـا دَرَجَاتٍ عَالِيَاتٍ فِـي عَـالَم الرُّوحِ الخَالِـدِ، وَفِـي سَلاَسَـةٍ سَـائِغَةٍ، وَبَلاغَـةٍ صَـرِيحَةٍ[4] تَرْتَـدِي ثَـوْبَ السَّـهْلِ

١/ **تأشَّبت:** اختلطت وتشابكت. التَّأَشُّبُ: التَّجَمُّع مِن هُنا وهُنا. والأُشابَةُ في الكَسْبِ: ما خالَطَه الحَرامُ، والسُّحْتُ.

٢/ **تُرَّهـات:** التُّرَّهَـةُ فـي الأصـل: الطريـقُ الصَّـغيرةُ المُتَشَـعِّبَةُ مـن الجـادَّةِ، واسْـتُعِيرَتْ للأباطِيلِ والأقاوِيلِ الخالِيَةِ من الطائِلِ.

٣/ **النَّادُّ:** الشارد. يقال: نَدَّ البعيرُ، يَنِدُّ نُدوداً: نفر وذهب على وجهه شاردًا.

٤/ **صريحة:** خالصة، والصّريح: الخالص من كل شيء، والتصريحُ: خلافُ التعريض.

المُمْتَنِع مِنْ نَسِيجِ البَدِيع، تَقُودُ إِلى هُدًى مُنِيرٍ وَحِكْمَةٍ سَامِيَةٍ جَلِيلَةٍ، تَرْتَفِعُ بالقُلُوبِ الكَبيرَةِ إِلى آفاقِ الرُّوحِ التي تُحَلِّقُ بأَجْنِحَةِ الزَّكَاءِ[١] فَوْقَ سماءِ رِضَا الحَقِّ، اسْتِجَابَةً لِدَعْوَةِ الحَقِّ وَرَسُولِهِ للعِلْمِ والحَيَاةِ والخُلُودِ.

إقرأْ ـ عَزِيزي ـ الوصَايا برُوحٍ صَافٍ وعَقْلٍ شَفِيفٍ، مُسْتَمْلِيًا الرُّوحَ التي كُتِبَتْ بهَا وأَنَا قَمِينٌ[٢] لِمَنْ قَرَأَهَا بِرُوحِ الصَّفَاءِ واتِّبَاعِ أَحْسَنِ القَوْلِ بالانْتِفَاعِ بِهَا، وبالانْتِفَاعِ بهَا سَيُدْرِكُ خُلُودَ النَّغَمِ الذي لا يَمُوت، وبقاءَ الرُّوحِ المُتَطَلِّعِ إِلى الكَمَالِ، ويَومَ أَنْ يُدْرِكَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمَ أَنَّ سَيِّدِي الشيخ عَبد المَحْمُود "الحَفْيَانْ" قَدْ أَلْبَسَهُ حِلْيَةً عِرْفَانِيَّةً، لُحْمَتُها خُيُوطٌ مَسْحُوبَةٌ مِنْ نَسِيجِ القَلْبِ المُنَوَّرِ بِنُورِ الله، الَّذي أَضَاءَ أَغْوَارَ الحَيَاةِ، فَخَرَجَتْ بهِ مِنْ ظُلْمةِ العَدَم إِلى نُورِ الوُجُودِ، وسَدَاهَا مِنْ حَرِيرِ الفِكْرِ المُتَمَاوِجِ فِي ضَوءِ شَمْسِ الحَقِيقَةِ، يُكْسِبُها أَلْوَاناً مِنْ الكَلِمِ وأَلَقاً بَهيجًا أَخَّاذاً مِن المَعَانِي، التي تَسُوقُ السَّالِكينَ طَرِيقَ الحَقِّ. ووَقْت تَحَلِّيْكَ بهَذِهِ الحِلْيَةِ – عَزِيزِي القَارئ المُحِبّ – يُؤذِنُ بِشُخُوصِ[٣] معْنَى التَّوَلِّي لِلحَقِّ بالحَقَّ، وَبِشُخُوصِ هَذَا المَعْنَى سَتُدْرِكُ إِدْراكًا يَرْقَى بِكَ إِلى مَقَامِ حقِّ اليقينِ مَعْنَى إِشَارَةِ الحَقِّ فِي قَولِهِ: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ

١/ **الزَّكاء:** الطُّهر.

٢/ **قمين:** ضامن.

٣/ **شخوص:** بروز وظهور.

عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤ ﴾[1] وسَاعتَهَا يَبِينُ لَكَ النَّعِيمُ المُقِيمُ، الَّذي يَعِيشُ فِيهِ أَولِيَاءُ اللهِ الصَّالِحُونَ، الّذِينَ تَوَلَّوْا اللهَ وَرَسُولَهُ فَتَوَلاَّهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ بِنِعَم وَسَرَّاءَ لَوْ عَلِمَها المُلُوكُ لَقَاتَلُوهُمْ عَلَيْها! وَعِنْدَئذٍ يَجبُ عَلَيْكَ أَنْ تُوحِّدَ الأَمَمَ[2] وتَرْفَع الهِمَّةَ لِتُنَافِسَ فِي بُلُوغِ ذُرَى المَعَارفِ فَوْقَ رِيَاضِ الرِّضَا والرِّضْوان، وفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ.

وأَخِيراً أَرْجُو أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الوَصَايا قَبَسًا مِنَ النُّور يَهْدِي السَّارِينَ، ولَمَحَاتٍ مِنَ المَعْرِفَةِ، تَحْدُو السَّالِكِين إِلى الاسْتِزَادَةِ مِنْ نُورِ الحَقِّ بِمَعْرِفَتِهِ الحَقَّةِ، وَصَيْقَلَ صَفَاءٍ وَجَلاَءٍ يَبْذُرُ فِي النُّفُوسِ ثِقَةَ التَّآلُفِ الرُّوحِي، ويُنَمِّي فِيهَا أواصرَ التَّقَارُبِ الوجْدَانِيّ الذي يَجْرِفُ الموانِعَ، ويُزِيلُ الحَواجِزَ، ويَخْرِقُ الحُجُبَ، ويُحَطِّمُ المَتَارِيسَ، لِتَلْتَقِي أَرواحُ المُؤمِنِينَ فِي ائتلافٍ وحُبٍّ إِيجَابيٍّ لإِخْوَانِهِم فِي الدِّين، حُبًّا لا يَحْتَاجُ إلى وُصُولاتٍ ومَعَاذِيرَ ومَنْطَقَةٍ؛ وهُوَ أَمْرٌ سَيَرْتَفِعُ بِكُلِّ مَنْ حَقَّقَهُ إِلى مَصَافِّ الأَصْفِيَاءِ، وَمَرَاتِبِ الأَحِبَّاءِ، عَلَى مَنَابِرِ النُّور كَمَا ذَكَرَ صَاحِبُ هَذِهِ الوصَايَا قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ.

١/ يونس: ٦٢-٦٤.

٢/ **الأَمَم:** الهدف والقصد.

وَلأَتْرُكُكَ الآنَ ـ عَزِيزِي القَارِئ ـ عَلَى ضَفَّةِ بَحْر "الحَفْيَانْ" لِتَضْرِبَ لَكَ طَرِيقًا فِيهِ بقُوَّةِ العَقْل ونُورِ الإِيمَانِ وَرُوحِ المَحَبَّةِ، علَّكَ تَزْدَانُ بِدُرَر مَعَارِفِهِ، أَوْ تَتَحَلَّى بجَوَاهِر حَقَائِقِهِ، أَوْ تَشْرَبَ مِنْ صَافِي دَنِّهِ. ولَنْ تَخْرُجَ صِفْرَ اليَدَيْن، ماصْطَحِبتَ أَهَدَى النَّجْدَيْن، واسْتَبْدَلْتَ الشَّكَّ باليَقِيْن.

واللهَ أَسألُ الرِّضَا والرِّضْوَانَ، لِسَيدي ومُرَبِّي رُوحِي أُسْتَاذِي الشِيخ عَبْد المَحْمُودِ "الحَفْيَانِ" قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ وعَنَّا بِه. كَمَا أَسأَلُهُ التَّوفِيقَ والهِدَايَةَ والرَّشَادَ لِكَافَّةِ إِخْوَانِنَا المُؤْمِنِينَ المُتَحَابِّينَ فِي اللهِ مِنَ العِبَادِ.

الفقيرُ إِلى الله

عبد الجبَّار المبارك موسى

معهد التربية ببخت الرِّضا.

مقدمة المؤلِّف

الحمدُ للهِ وبهِ الاستعانةُ وعليه التُّكلان وإليهِ المَصير، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى سَيِّدِنا المُكْرَم مُحَمَّدٍ أَفْضَل المُصْطَفِينَ الأَخيَار بَشِيراً ونَذِيراً.

وبعدُ:

الوَصِيَّةُ عَهْدٌ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الأَحياءِ، للعَمَلِ بِمَا جَاءَ فِيه وِفْقَ ما ارتضاهُ المُوصِي، وَلَمَّا بَدَأَتِ الحَيَاةُ بالعَهْدِ، كَانَ لِزاماً عَلَى مَنْ فَارَقَهَا أَنْ يُفَارقَهَا عَلَى عَهْدٍ، لأَنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً. ولا خُلُودَ للإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، ولا بَقَاءَ لِنَفْسٍ مَنْفُوسٍ فِيهَا؛ والحَقُّ تَعَالَى يَقول: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩ ﴾[1].

والوَصِيَّةُ عَلَى المُؤمِنِ حَقٌّ وفرضٌ يَجِبُ أَدَاؤه تَحْقِيقاً لِقَولِه تَعَالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2] نَعَمْ إِنْ تَرَكَ خَيْراً وهو يَعْنِي ظَاهِراً فِي هذِه الآيةِ المَالَ، ولَكِنَّهُ – أيْ الخيْرُ – عَلَى إطْلاَقِهِ لَفْظٌ يَشْمَلُ كُلَّ ما يُنْتَفَعُ بهِ نَفعاً لاَ يَجْلِبُ ضَرَرًا.

١/ العنكبوت:٥٧-٥٩.

٢/ البقرة: ١٨٠.

وَلَمَّا لَمْ أَتْرُكَ مَالاً أُوصِي فِيه! فإِنِّي أَرَى الخيْرَ الذِي تَرَكْتُهُ كَثِيراً، لا يُمَاثِلَهُ خيرٌ، نَعَمْ:

❖تَرَكْتُ فِيكُمْ اللَّهُ خَلِيفَةً عَلَيْكُمْ، يُسَدِّدُ مَنْ تَخْتَارُونَ، ويأْخُذُ بيَدِهِ إِلى بَرِّ الأَمْنِ والاهْتِدَاءِ مِنْ بَحْرِ الحَيَاةِ المَسْجُورِ[١] بالفِتَن.

❖تَرَكْتُ فِيكُمْ مِنَ الخيْرِ كِتَابَ الله وسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ.

❖ كَمَا تَرَكْتُ فِيكُمْ مِنَ الخيْرِ كَلِمَةَ التَقْوَى، خيْرُ ما جَاءَ بهِ سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ والنَبِيُّونَ مِنْ قَبْلِهِ[٢]، صَلَوَاتُ اللهِ وسَلاَمُهُ عَلَيْهِمْ.

❖ تَرَكَتُ فِيكُمْ الخُلُقَ الحَسَنَ والعَمَل الصَّالِحَ مِنْ نَهَارِ مُصام ولَيْلِ مُقام، وعَلَى ذَلِكَ أُوصِي، وبذلِكَ أَعْهَدُ، فاحْفَظُوا عَهْدِي إِلَيْكُم فإِنَّكُم مَسْئُولُونَ. والله المَسْئوُلُ أَنْ يجْعَلَكُم مِنَ الَّذِينَ يسْتَمِعُون القولَ فيتَّبِعونَ أَحْسَنَهُ.

ولأَبْدَأَ فِي وَصِيَّتِي بِمَا بَدأَ الحَقُّ حين قَالَ لرَسُولِهِ الكَرِيم: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[٣] و﴿ ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[٤] والمَحَبَّةُ

١/ **المسجور**: المستعر والممتلئ.

٢/ روى مالك والبيهقي عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً، أنَّ النبي ﷺ قال: {أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي "لا إله إلا الله وحده لا شريك له"}. وأخرجه الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وقال الترمذي: حسن غريب. انظر: [موطأ مالك، ج: ١ ص: ٢١٤]. و[سنن البيهقي الكبرى، ج: ٤ ص: ٢٨٤]. و [سنن الترمذي، ج: ٥ ص: ٥٧٢].

٣/ الشعراء: ٢١٤.

٤/ البقرة: ١٨٠.

نَسَبٌ والحٌ، لأَنَّه أقْرَبُ الأَنْسَابِ وبهِ كُلُّ مُحِبِّ "قَرِيبٌ" مَعْهُودٌ إِلِيْهِ بِهَذِه الوصَايا، التَّي هِيَ عَهْدِي إِلِيْكُم – بَنِيَّ وأَحْبَابِي– فَلا تُضَيِّعُوهُ وَقَدْ تَرَكْتُ اللهَ عَلَيْكُمْ شَهِيداً.

ألا هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ.

الموتُ حيوانٌ أكمل

فلْتَعْلَمُوا بَدْءاً ـ بَنِيَّ ـ أَنَّ الحَيَاةَ فَلَكٌ دَوَّارٌ، يَتَعَاقَبُ عليْه لَيْلٌ ونَهَارٌ؛ ولَكِنَّ كثيراً مِنَ السَّالِكينَ طرِيقَ الحَقِّ لا يَرَوْنَ نَهَارَ هَذِهِ الحَيَاةِ، بَلْ إنَّهُم يُرَدِّدون دَائِمَاً أنَّ الحَيَاةَ ظُلْمَةٌ والعَيْشَ عَذَابٌ، لا لِشَيْئ إلا لأَنَّهم يَضَعُون عَلَى أعْيُنِهمْ عَدَسَاتِ المَشَقَّةِ والبؤسِ، التَّي غُشِيَتْ بألوانِ الأَلَم القَاتِمِ والفَقْدِ الكَئيبِ المُعْتِمِ لِمَشاعِل النُّور وكواكِبِ الهُدَى؛ ولَكِنْ مَنْ قَالَ لِهَؤُلاءِ النَّاس أَنَّ دَوَرَان الفُلْكِ قَدْ توقَّف؟! ومَنْ أَنْبأَهُم أَنَّ الأَيَّامَ قَدْ عَقُمَتْ!؟ وهَلْ عَلِمُوا يَوْماً أَنَّ الخُلُودَ نَصِيبٌ لقَفصِ الطِّين الَّذِي تَهُدُّ أَرْكَانَهُ رِيَاحُ السُّقْم وتُسَيِّرُهُ مَوْجَاتُ الحَيَاةِ إلى مَدَاخِلِ المَوْتِ وفْقَ إشَارَةِ القَدَر الَّذِي يَعْمَلُ بِحَسَبِ قَضَاءِ اللهِ النَّابع مِنْ حُكْمِهِ عَلَى عِبَادِه؟! وَهَل تَجِدَنَّ الدَّهرَ رَادَّاً لِقَضَاءِ اللهِ أَو مُعَقِّبًا عَلَى حُكْمِهِ؟!!. فالحَيَاةُ حَيَاةٌ دُنْيا، والمَوْتُ حيَوانٌ[١] أَكْبَرُ وأَكْمَل، والحيُّ وَاحِدٌ لاَ يَمُوتُ ولا يَبْلَى، يَمُدُّ الرُّوحَ بالحَيَاةِ عَلَى الأَرضِ وفَوْقَ الرَّفْرَفِ الأعْلَى.

فَهَلْ تَحْسَبُونَ المَوْتَ فُقدَانٌ وانْدِثَارٌ وفَنَاءٌ؟! مُخْطِئُونَ واللهِ إنْ ظَنَنْتُم ذَلكَ!! فَمَا المَوْتُ ـ فِيمَا أَعْلَمُ ـ إلاَّ تَجْدِيدٌ للقُوَى وتَغْيِيرٌ لِلخَلْق لِيُنَاسِبَ الحَيَاةَ الأُخْرَى؛ وَإلاَّ فَأَقِمْ مَأْتَمًا عَلَى كُلِّ مَنْ نَامَ! أَلَيْسَ النَّومُ صِنْوَ المَوْتِ؟! أَوَلَيْسَ اللهُ هُو الَّذِي يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ فِي مَنَامِهَا؟؟!.

١/ **حيوان**: الحيوانُ: الحياةُ الدَّائمة. وفي التنزيل: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت ٦٤]. أي الحياة الحقيقية السَّرمديَّة التي لا تفنَى.

نَعَمْ أَحِبَّائِي يَكُونُ المَوْتُ أَلِيمًا مُفْزِعًا إِنْ سَكَنْتُم لَهُ وجَمَّدْتُم نَهْرَ الحَيَاةِ عَن الحَرَكَةِ والانْدِفَاع فِيكُمْ، وبِهذا الجُمُودِ فِي يَأْسِ والسُّكُونِ فِي حُزْنِ والوُقُوفِ فِي حَيْرةِ يَكُنِ المَوْتُ حَقًّا.

ولَكِنْ لِتَعْلَمُوا أَنَّ الرُّوحَ لا تسْكُنُ ولا تَقِفُ بَلْ هِيَ فِي حَرَكَةٍ تُمْلِيهَا حَرَكَةُ الطُّيورِ الخُضْرِ فِي سماءِ الجَنَّةِ، مُرْسِلةً أَصْوَاتاً عَذْبَةً تَبْعَثُ الأَمَلَ لِمُواصَلةِ السَيْرِ حَثِيثًا نَحْوَ اللهِ فِي الذِيْن اعْتَقَدُوا أَنَّ المَوْتَ نِهَايَةٌ لِلْسَّيْرِ، ومَا دَرَوْا أَنَّه مَرْحَلةٌ دَقِيقَةٌ قَوِيَّةٌ مِنْ مَرَاحِلِ السَّيْرِ، يَكُونُ الرَّائِد فِيها أَقْوَى رُوحًا، وأَعْلَى تَحْلِيقًا بِها فَوْقَ سَمَاءِ المَلَكُوتِ، لأَنَّهُ لا يُوجَدُ مَا يَعُوقُ مَسِيرَتَها نَحْوَ اللهِ، سِيَّما وَقَدْ خَلَعَتْ ثِقَلَ الجَسَدِ الطِّينِيّ. وَلَقَدْ:

أَضَاءَ الهَوَى قَلْبِي ونَقَّى سَرِيرَتِي فَلَسْتُ كَبَعْضِ النَّاسِ أُنْسَبُ لِلتُّرْبِ
وَطَهَّرْتُ فِي نَجْوَاكَ سِرَّ جَوانِحِي فَخَلَّصْتُها مِنْ عَالَمِ البُعْدِ والْحُجبِ

فابْشِرُوا بالحَيَاةِ الحَقَّةِ حِينَ التَّمَرُّدِ عَلَى اليَأْسِ والحُزْنِ القَاتِلِ القَاطِع عَنِ اللهِ تعَالَى، وَهَل يَصِلُ مَنْ سَكَنَ للحُزْنِ إِلَى مَنْ هُو كلَّ يَوم فِي شَأنٍ؟!. وهَل المَوْتُ إِلاَّ شَأْنٌ يَوْمِيٌّ لِلْحَقّ يَنْقُلُ بِهِ اللهُ عِبَادَهُ إِلَى جِوَارِه؟! وهَلْ يَحْزَنُ عاقِلٌ أَو يَستَاءُ إِنْ وَفَدَ حَبِيبُهُ ونَجِيُّهُ إِلى اللهِ، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ الكَرِيمُ الَّذِي يَحْنوُ عَلَى عِبادِه حُنُوَّ المُرْضِعَاتِ عَلَى الفَطَيْم.؟! بَلْ إِنَّ اللهَ لأَشَدُّ شَفَقَةً مِنْ أُمّ تَذُودُ الويْلاتِ عَنْ وَحِيْدِهَا.

فَدَعُوا – أَحِبَّائِي– التَّحَدُّثَ عَنْ ظُلْم الحَيَاةِ وظُلْمَتِهَا، فَلَيْسَتْ بمُظْلِمَة إِنْ حَمَلتْ أَزَاهِيرَ رِيَاضِ المَعَارِفِ، وأَقَلَّتْ مَنَارَاتِ الهُدَى إِلى طَرِيقِ الحَقّ، وأَرْسَتْ قَوَاعِدَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، وأعطتْ ثِمَاراً يانِعَات مِنْ مَزْرَعَتِها النَّضِرَةِ بِنَضَارةِ القُلُوبِ والأَيْدِي، الَّتِي رَعَتْها عَمَلاً صَالِحًا، وخُلُقًا رَفِيعًا، وسَنَنًا رَشِيداً؛ يَدْفَعُ السَّالِكَ المُرِيدَ إِلَى الحَرَكَةِ

والجَهْدِ، فِي إخلاصِ ونُكْرَانِ ذاتٍ إِلَى غرسِ العَمَلِ الصَّالِح والخُلُقِ النَّبِيلِ والعَطَاءِ السَّمْح، في تُرْبَةِ الحَيَاةِ الصَّالِحَةِ، لتَبْدَأَ حَرَكَةُ النَّمَاءِ والازْدِهَارِ.

ولا أَظُنّي أَعدُو الحَقَّ إنْ قُلْتُ: إنَّ الحَيَاةَ مُضِيئةٌ بِنورِ اللهِ، لأَنَّها تُمَثِّلُ عَظَمةَ اللهِ ومَجْدَه، لذوي العُقُولِ الَّتي تَسْتَشْرِفُ الوُقُوفَ عَلَى عَظَمةِ اللهِ وبالغ حِكْمَتِهِ، بِسَبْرِهَا لآياتِ الآفَاقِ الَّتي سَتَجدُ اللهَ فِيهَا بِقُدْرَتِهِ وحِكْمَتِهِ ولُطْفِهِ وخِبْرَتِهِ. ولَكِنَّ ذاتَ الحَيَاةِ قَدْ تَعُودُ مُظلِمةً خَامِدةً مُعْتِمةَ الآفاقِ، إذا فَقَدَ الإِنْسانُ الحَرَكَةَ للاسْتِفادةِ والاسْتِعَانةِ بِهَذَا النُّورالإلهيّ، للكَشْفِ عَنْ أَسْرار الحَيَاةِ وُصُولاً إِلىَ الإِيمانِ والمَعْرِفَةِ الحَقَّةِ بالحَقِّ، التي بِهَا قِوامُ الحَيَاةِ وَشَرَفُ الممات. كَمَا أَنَّ الحَرَكَةَ نَفْسَهَا قَدْ تَتَوَلَّدُ شَوْهاءَ عَشْواءَ لا بركةَ فِيهَا ولا نَماءَ، إنْ لَمْ يُصاحِبْها الإِخْلاصُ الرَّاضِي، والمَعْرِفَةُ المُحْسِنةُ بِقَضَاءِ اللهِ وخَفِيّ حِكْمَتِهِ، لأَنَّ المعرفةَ بِهَذا الوصْفِ صَمَّامُ الأمانِ، والدِّرْعُ الوَاقي مِنْ صَدَماتِ القَدَرِ، الَّذِي تَتَكسَّرُ سِهَامُه عَلَى تُرُسِ المعرفةِ، ولا تجدُ مَنْفَذاً لإتْلافِ الوِجْدانِ والقلبِ ما دامَ فِي حمايةِ المعرفةِ وحِصْنِ العلم باللهِ.

الحِلْيَةُ العرفانية

وحَاذِرُوا –أَبنائي– مِنْ معرفةٍ سقيمةٍ وعِلْم عَقيم لا يُنْتِجُ عَمَلاً، ولا يَخلِقُ قُوَّةً دافِعةً للخَيْر والحَقّ والسَّلام فِي الإنسانِ. وكلُّ عَمَلٍ أَيُّها السَّالكُ باطلٌ وهَشِيمٌ تَذْروهُ الرِّياحُ وتَبْتَلِعُهُ طَوِيُّ النِّسيان[1] دُونَ أَنْ

---

[1]/ **طَوِيّ**: الطَّوِيُّ: البئرُ المَطْوِيَّة بالحجارة، وطَوَى الرَّكِيَّة طَيّاً: عرشها بالحِجارةِ والآجُرّ. ومنه حديث عليّ رضي الله عنه [بل انْدَمَجْتُ على مَكنونِ علْمٍ، لو بُحْتُ به لاضْطَرَبْتم اضْطِرابَ

يُخَلِّفَ ذِكْراً إِنْ لَمْ تُصاقِبُهُ١ المَحَبَّةُ لِخَلْقِ اللهِ، ويُواكِبُه شُعورٌ طاغ بِحُبِّ اللهِ ورَسولِهِ، والَّذِي يَجبُ أَنْ يَعْكِسَ شعُورَكَ بالحُبِّ ويُترجمهُ فِي الوقتِ الزَّمانيّ عطفًا عَلَى الآخَرِينَ وعوناً لَهُمْ، فِي حُبٍّ يَربطُهُمْ بِبَعْضِهِمْ البعض، وفِي سَماحةٍ تُنْسِي المَنَّ[٢] والأَذَى، وفِي خُلق رفيع يرتفعُ بهم لِيَربطَ كُلَّ وَاحدٍ بربّهِ الَّذي أنْعَمَ عليهِ بِنعمةِ حُبِّهِ، وحُبِّ عبادِه الصَّالِحين.

ولْتكُن آيةُ اقْتِرانِ عَمَلِكَ بمحبَّتِهِ تعالَى **حِلْيَةٌ عِرْفانيةٌ**، لُحْمَتُهَا خُيوطٌ مَسْحُوبَةٌ مِنْ نَسيج القَلْبِ المُنَوَّر بِنورِ اللهِ، وسَدَاها مِنْ حَريرِ الفكر المُتَماوِجِ فِي ضَوءِ شمس الحقيقةِ، يُكْسِبُهَا أَلواناً مُشْرِقَةً مِن الكَلِمِ، وأَلَقاً بَهيجًا أَخَّاذًا مِن المعانِي الَّتي تسوقُ السَّالِكِينَ وتَسْتَوْفِزُهُم٣ إِلَى طلبِ هذه الحِلْيةِ.

ولْتَكُنْ عَلَى بساطِ الفِكْرِ عَلَى الدَّوام فِي الحَبِيبِ الَّذي سَيَرْتَدِي هَذِهِ الحِلْيةِ الَّتي وَضَعْتُ فيهَا نَسْمَةً مِن الرُّوحِ الطَّاهر.

حقًّا- أَحِبَّائي- إِنَّ العملَ الصَّادقَ والعلمَ الباقِيَ والسَّنَنَ الحَسَنَ الخَالدَ هو الصُّورةُ الظَّاهِرَةُ للمَحبَّةِ الكاملةِ للهِ ورسولِهِ، وهو الحِلْيَةُ الَّتي تَبْقَى وتُزينُ حينَ تتَطايرُ كُلُّ الحُلِي!! فارتدوا حِلْيَتِي بإِتْقَانٍ مُتَرَسِّمٍ٤ أَعِشْ

الأَرْشِيَةِ في الطَّوِيّ البَعيدَةِ]. والأرشية: جمع رِشاء، وهو حبل الدلو. وفي حديث بَدْرٍ: [فَقُذِفوا في طَوِيٍّ من أَطْواءِ بَدْرٍ]. أَي: بِئرٍ مَطويَّةٍ من آبارِها. وجمع الطَّوِيّ: أَطواءٌ.

١/ **تصاقبه:** الصَّقَب: القُربُ والمُلاصَقَة.

٢/ **المنَّ:** التَّكبر بالعطاء.

٣/ **تَسْتَوْفِزُهُم:** تستخفهم، واستوفز: اسْتَقَلَّ على رجليه وتهيأ للوُثُوبِ والمُضِيّ.

٤/ **مُتَرَسِّم:** مُتَّبِع.

بَينكم أَبدًا. وَلْتَعلَمُوا أَنَّ الكأْسَ[1] النُّوريَّة الَّتي تحفظُ خَمْرَتَكُم، هي ذاتُ الكأسِ الَّتي أُحْرِقَتْ فِي أَتُونِ تَجَلِّيَاتِ الحَقِّ بِنِيرانِ المَشَقَّةِ والاشتِياقِ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ إليكم. فمَا أَصَابَكُم ـ بَنِيَّ ـ مِنْ شَرَرٍ وأَنتم تُجْلُونَ الأَرواحَ، وتُزِيلونَ خَبَثَ النُّفوسِ فرُدُّوه إِلَى ذلكَ الأَتُون. واعلموا أَنَّ:

كُلَّ شَيءٍ بِقَضاءٍ وقَدَر مِنْ جَنَابِ الحَقِّ يَلْقَاهُ البَشَر

بِروحٍ عالٍ وقَلْبٍ مُتَفَتِّح.

الروح المتطلع إلى الكمال لا يَفْنَى

وحدِّقوا ـ أَحِبَّائي ـ فِي أَعماقِ قُلوبكُم بإِحساسٍ صادقٍ وبصِيرةٍ وقادةٍ تجدُوا الفرحَ فيما تَظُنُّونَهُ حُزْناً!! وهَلْ يَحْزَنُ مَنْ لهُ أَدْنَى بَصَر باللهِ عندَ لقائِه؟. وهل يتأَسَّفُ على الفِرَاقِ مَنْ لَهُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَةِ؟ إنِّي أَعلمُ ـ أَخلاَّئي ـ أَنَّ البحرَ مائرٌ عنيدٌ، وأَنَّ في البَّرِّ لَقَسْوَرَةٌ عنيدٌ [2]. فاجعلوا مِنْ عقولِكُم المنوَّرةِ بنورِ اللهِ دَفَّةً لِسَفائِنِ

1/ **الكأس النورية:** يشير بذلك ﷺ إلى نفسه ويرمز إلى قلبه الذي به يشرب وبه يسقي. والشرابُ بفم القلب أشار إليه جدُّه الأستاذ الشيخ عبد المحمود ﷺ بقوله:

اشرب لقهوتنا إن كنتَ تهوانا بفم قلبٍ طهورٍ قد علا شانا

وقلبه ﷺ –والذي هو محلُّ التجلّيات من ربه جلَّ شأنه– هو الإناءُ والمستودع الذي يحفظ العلوم والمعارف والأسرار الربانية. وهذا من معنى ما جاء في رواية الطبراني من حديث أبي عِنَبة الخولاني قال قال رسول الله ﷺ: [إنَّ لله تعالى آنيةً من أهل الأرض، وآنيةُ ربكم قلوبُ عباده الصالحين وأحبُّها إليه أليَنُها وأرقُّها]."مسند الشاميين، ج: ٢ ص: ١٩ الحديث رقم ٨٤٠". قال الهيثمي إسناده حسن.

2/ **البحر**: يرمز به للصَّدر. والبر: يرمز به للفم. والقسورة: الأسد. يرمز به هنا لِلِّسان.

نُفوسِكُمْ تَقْوَى علَى شَقّ عُبَابِ هَذَا البحرِ المضّطربِ بالعواطفِ في صَدْرِ أَيّ منكم. واجعلوا مِنْ ذاتِ العقولِ قُيُوداً تَمْنَعُ القَسْورَةَ العنيدَ مِن الحِرَاكِ نَحْوَ الشَّرّ في فَم أيّ مِنْكُم.

وحاذِرُوا ـ أَحِبَّائِي ـ تَوَقُّدَ العواطِفِ وتَأَجُّجَ نِيْرانِها مَع غَيْبَةِ العقلِ، لأَنَّ العاطفةَ المُتَّقِدةَ إِنْ لَمْ يُقَيّدْهَا العقلُ العارفُ العالِمُ كانتْ لَهِيبًا حارقًا، وداءً عُضَالاً[١] يَتَمَشَّى فِي بِنْيَةِ النَّفسِ السَّليمةِ فَيُورِدُهَا مَوارِدَ العَطَبِ.

فَلْيَعْمَلْ كلٌ مِنكم جاهداً للمحافظةِ علَى دَفَّةِ سفينةِ نفسِهِ، المُتمثّلَةِ فِي عَقْلِهِ، الَّذِي يَجِبُ أَنْ يقفَ قَوِيًّا صُلْباً لا تُحَرّكُهُ المآسِي العاصِفَةُ، ولا تَسْتَفِزُّهُ إِشاراتُ عَصَا القَدَرِ بنهايةِ العَزْفِ في مَقطوعَةِ الحياةِ. لأَنَّ النَّغَمَ الخَالِدَ لا يَمُوتُ، والرُّوحَ المُتَطَلّعَ إِلى الكمالِ لا يَفنَى، والعقلَ الذي وَجَدَ بَرْدَ الرَّاحةِ فِي كَنَفِ اللهِ[٢] لا يضطَّرِبُ، كما أَنَّ القلبَ الَّذي تَفَتَّحَتْ أَكْمَامُه بأنوارِ الحقيقةِ ونَسَماتِ الرّضَا وَرَوْح الحُبّ لا يُمْكِنُ أَنْ يجِدَ ظلامُ اليأسِ إلى شِعَابِهِ سبيلاً.

فاجعلوا ـ بَنِيَّ ـ مِنْ عقولِكم رُوَّاداً لمشاعرِكُم وقُوَّاداً علَى عواطِفِكُم، لِتَعيشوا مَعِيَ الحياةَ وَما بَعْدَهَا أَقوياءَ، تُعطونَ ما يعترِضُكُم مِن العَقابيلِ[٣] اليَوْمِيَّةِ حقَّهَا مِن التَّأَمُّلِ والتَّفَكُّرِ والرَّوِيَّةِ، لِيَبْدُوَ لكم أَنَّ آلامَكُمْ أَقَلُّ غَرابَةً وأَلْصَقُ جَنْبًا مِنْ أَفراحكم.

١/ **الدَّاء العُضال:** هو الداءُ الذي يزيد مع الأيام، ويُعْيِي الأَطِبَّاءَ عِلاجُه.

٢/ **كَنَف الله:** الكَنَفُ: الجانِبُ والظِلُّ والناحيةُ، ويقال: أنْتَ في كَنَفِ اللهِ: أيْ في حِرْزِهِ وسِتْرِهِ.

٣/ **العَقابِيلُ:** الشدائد.

شِتَاءُ القُلُوبِ ومِدْفَأْةُ الْعَقْلِ

ولئِنْ كانَ ربيعُ القلوبِ يُشيعُ الفَرحَ فِي النُّفُوسِ، فإنَّ شتاءَ القلوبِ يُرْعِدُ هَذِهِ النُّفوسَ بأَلم الصَّقِيع والقِرّ [١] الذي لا يجدُ الإنسانُ مَفرًّا مِنْ تقَبُّلِه ما دامَ شَيْءٌ لا بُدَّ مِنه ليسيرَ النَّسَقُ الحَياتِيُّ، كَمَا قُدِّر لَهُ أَنْ يَسيرَ فِي الوجودِ الزَّمانِيِّ. فلا غَرَابَةَ في فُصولِ أَيَّامِكُم، كَمَا أَنَّهُ لاَ عَجَبَ في فُصولِ قُلوبكُم! وإذا كان شتاءُ أَيام السَّنةِ يُرعِدُ الأَبدانَ، فإِنَّ شتاءَ القلوبِ يُصِيبُ النُّفوسَ بِرعْدَةٍ تَهُزُّ مُقَوِّمَاتِهَا وتَعْبَثُ بوظائِفَها، إنْ لَمْ تجدْ مِدْفَأَةَ العَقْلِ مَشْحونَةً بمشاعلِ العِلْم وأَنوارِ الهُدَى. فلا تُطفئُوا جَذْوَةَ الأَمَلِ فِي التَّقَدُّم نَحْوَ الحقِّ فيكم، لأَنَّ الخَيرَ لا يُدْفَنُ، والبَركةَ لا تُقْبَرُ، والبحرَ لا يغورُ وإنْ تَعَرَّضَ للنُّقصانِ في بعضِ الفتراتِ التي تَنْغَلِقُ فيها مَسالِكُ الوِجْدانِ.

كما أَنَّ البرَّ في أَيِّ منكم لا يَتَيَبَّسُ ولا يَبْلَى، ما دامتْ أَرضُهُ صالحَةً لِتَقَبُّلِ مياهِ البحرِ العذْبَةِ، ونسيم الهَوى الأَرِج، وأَشِعَّةِ شمسِ الحقّ البَلِجَةِ لتُخرجَ نَوْرَ الكلماتِ المشرقةِ، المُحَلِّقَةِ بأَجنحةِ الرَّخَاءِ والخيرِ والحقّ والسَّلام، فوقَ سَماءِ الأَمل العريض الَّذي يَكْتَنِفُ أَرضَ النُّفوسِ فِي كُلِّ سالكٍ يرَى الحقَّ تعالى فِي كلِّ عَمَلٍ، سيّمَا فِي حَضَراتِ العَطَاءِ [الميلاد] والأَخذ [الوفاة] التَّى تساوتْ مَوازينُها فِي يدِ القَضَاءِ!.

فكانَ المؤمنُ حقًّا مَنْ تَساوتْ فِي مَوَازِينِهِ الفِكريَّةِ كَفَّةُ الأَخْذِ وكَفَّةُ العطاءِ، مادامَ كُلٌّ قَدْ سُجِّلَ في أُمِّ الكتابِ بِقَدَرٍ مَقْدُورٍ. فإِنَّه وقد

١/ **الصقيعُ**: الجلِيدُ، وما يَسْقُطُ من السماء بالليل شَبيهٌ بالثلج. والقُرُّ: بالضم: البَرْدُ. والقِرَّةُ، بالكسر: ما أصابَكَ من القُرِّ.

صدَقَ الحقُّ تعالَى إذ يقول فِي مُحكم التَّنْزيلِ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[1] وأَيْسَرُ مِنْهُ على اللهِ أَنْ يَجعَل عبدَهُ الصَّادقَ في حُبِّهِ طُوراً سَنيًّا، مُشْتَعِلاً بِنارِ الحِكْمَةِ يَغْشَاهُ كُلُّ كَليم مِن الحقّ، علَّهُ يأْتي أَهلَهُ بقبسٍ مِن نُورِ المَعرفةِ، أَو بِخبَرِ عن العالَم الحَقّ، يكونُ هُدًى وبُشْرَى لِقَوْمٍ يؤمنونَ.

إِنَّما المَوْتُ تَجَلٍّ فِي مَقامْ

ولَئِنْ تَدَكْدَكَ طُوري، فإِنّيَ السَّاجِي في غَفْوَةِ اللّقاءِ بالحَقِّ، الَّذي أَجدُ فِي وُجُودِهِ الآنِس غَنَاءً عن كلِّ وجود، ولِي في رَكْبِ المَلَكِ يَزُفُّ عَروسَتي فِي أَثوابِهَا السُّنْدُسِيَّاتِ، وريحِهَا العَبِق إِلى غُرَفِي الدُّرِّيَّاتِ، فِي دَرَجاتِ الفِردَوسِ حُدَاءٌ، يُنسيني لَحْنًا طالما تَرَدَّدَ على أَوتارِ عُودي، الَّذي لا أُبَالِي إِنْ تكسَّر! لأَنَّ تَكسُّرَهُ لا يَعْنِي فنائي!! فإِنَّ ما يَفْنَى هو السَّقَطُ، ولم أَجِدْ فِي أعوادِ غابي يومًا سَقَطًا[2] فما أَنا بالسَّاقطِ مِن بعدِ الحِمَامْ[3].

هل رأَيتم قائمًا بالحَقِ يَخْشَى مِنْ حِمَامْ ... إِنّمـا المـوتُ تَجَـلٍّ فِـي مَقـامْ

كمْ تَجَلَّى شاعِرٌ بالحَقِ مِنْ بعدِ الحِمَامْ ... يُـوقِظُ الأَعْـيُنَ حِيناً ويَنـامْ

ويُشِيعُ النُّورَ فِي الأَسرارِ دَهراً ويَنامْ ... ويَمُـدُّ الـرُّوحَ بالإِيقانِ حَتَّى لا تَنامْ

١/ الحديد: ٢٢-٢٣.

٢/ السّقط: التافه الذي لا قيمة له. وأعواد غابي: يرمز بها للأحباب والمريدين.

٣ / الحِمام: هو الموت.

حَـدِّقوا فِـي سِـفْرِهِ١ تَجِـدُوا العِبَـرْ فيــهِ وجــهُ الحــقّ بــالنُّورِ سَــفَرْ[٢]

قد أَنَارَ الدَّرْب لِلْحقّ لِمَنْ يرجو السَّفَرْ

ونحــنُ أُولــو عِلْــمٍ ولكِــنْ بِوَجْـدِنَا شَرِبْنَا مِن الأَنـوارِ ما لـيْسَ يُشْرَب

كونوا مَمْسُوسين فِي ذاتِ الله

فـارْتَقِعُوا ـ أَبْنَـائي ـ إلـى مصـافّ قَضَـاءِ الحَكـيم فيمَـا خَلَـق، وكونـوا مَمْسُوسين٣ فِي ذاتِ الله وليس في أَدْنَى مِنْ ذلك، لأَنَّ الطَّريقَ دارِجٌ، والسَّبيلَ مَمْهُودٌ إلاَّ مِنْ عقبةٍ كؤودٍ٤ هيَ النَّفْسُ، التـي إنْ لمْ تَشْغَلُوهَا بالحَقّ شَغلَتْكُم بالباطل.

فلا تَجعلوا –بَنِيَّ– مِنَ البَيْن أَيْن٥! لأَنَّ فِي الأَيْنِ بعد البَيْنِ قُصُور. فاحرصوا أَلاَّ تُذْكرَ محاسِني بمثالِبكم بل اجعلوا مِن الطَّريق وَصْـلاً، ومِن الإحسانِ دَيْدَنًا، ومِن الوَجهِ الطَّلْقِ زاداً يسَعُ كلَّ النَّاسِ.

١/ سِفْرِه: كتابه.

٢/ سَفَرْ : وَضَحْ.

٣/ كونوا ممسوسين: أيْ لا يَمَسُّ مَراكزَ الإحساسِ والشُّعورِ فيكم فرَحًا وحُزْناً، هَمًّا وشُغْلاً، إلاَّ ما كان في ذات الله، كما قال سيّدي الشيخ أحمد الطيّب بن البشير رضي الله عنه في دعائه: "اللهم اجعلْ همِّي بك وإليك همًّا واحِدًا، واجعلني بك وإليك مُشاهدًا".

٤/ كؤود: شاقَّة المَصْعَدِ، صَعْبَةُ المُرْتَقى.

٥/ البَيْنُ والأَينُ: البينُ بمعنَى الفراق والبُعْد، والأَيْنُ استفهامٌ عن شـيءٍ بَعُدَ أو فُقِدَ. والمراد لا تجعلوا بَنِيَّ مِنْ فراقي لكم بالموت وبُعْدي عنكم حِسًّا بالجسد، فِراقًا وبُعْدًا وتركًا لما

واذْكروني بِكم، ولا تجعلوا ذِكْرَكُم بِي، وَلْيَذْكُرْني أَحبابي بكُم وفيكُم. فإِنّيَ والَّذِي نفسي بيده لمْ آلوكُمْ جَهْداً في التَّوجيه والإرشادِ، وقد تركتُكُمْ علَى المَحَجَّةِ البيضاءِ والسُّنَّةِ الغَرَّاءِ. فلا تَجْعلوا مِن الدُّنيا أَكبرَ هَمِّكُم، فإنَّها {لا تَعْدِلُ عند اللهِ جَناحَ بَعوْضَةٍ}[1]. وهل فِي جَنَاح بَعُوضَةٍ غَناءٌ؟!!.

ولا تُوكُوا فَيوكَى عليكم

فانفقوا –بَنيَّ– يُنفِقِ اللهُ عليكُم؛ واخْشَوهُ واتَّقُوه يَرْزُقكُم مِن حيثُ لا تحتسبُوا. ولا تُوكُوا [2] فيُوكَى عَلَيكم، ولا تَخزنوا فَيُخْزَنُ عَنْكُم الخَيْرُ. فإنَّ مَنْ رَحِمَ لا شَكَّ مَرحومٌ ولو في عُقْرِ دارِهِ. ومَن يُقْرِضُ اللهَ قرضًا حسنًا يضاعِفهُ لَهُ. فأحْسِنُوا القَرْضَ للهِ يُحْسِن الوفاءَ لَكُم.

وأحسِنُوا السَّفَرَ باتِّخاذِ الزَّادِ، فإنِّي رأَيتُ السَّفَرَ إلى اللهِ أَبعدَ ما تُريدونَ؛ فخذوا له ما يُصْلِحُكُم – بَنِيَّ–. إِذْ أَنَّ صيامَ يومٍ حارٍّ مُرْمِضٍ يَقِي مِن

تركتُه فيكم مِن خصالِ الخيرِ وصفاتِ النُّبْلِ ومكارمِ الأخلاق، فلا يفقدُها الناسُ فيكم بعدي فقدًا يجعلهم يتساءلون: أينَ صاحبُ تلك المكارم؟!!

[1]/ روى الترمذي وابن ماجه والحاكم . واللفظ له . عن سهل بن سعد ﵁ قال: مرَّ رسول الله ﷺ بذي الحليفة، فرأى شاة شائلة برجلها. فقال: {أترون هذه الشاة هينة على صاحبها؟}. قالوا: نعم. قال: {والذي نفسي بيده، للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولَوْ كَانَتْ الدّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ}. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. [سنن الترمذي، ج: ٤ ص: ٥٦٠]. و[سنن ابن ماجه، ج: ٢ ص: ١٣٧٦]. و[المستدرك، ج: ٤ ص: ٣٤١]. ومعنى"شائلة برجلها": أي رافعة رجلَها من الانتفاخ.

[2]/ **وكَى** القِرْبة: شدَّها بالوِكاء– وجاء هنا كنايةً عن البخل والمنعِ.

الزَّلَلِ فِي يوم أَشدُّ حَرًّا منه وأَطولُ نشوراً. ولَحَجَّةٌ مَبرورَةٌ إِلَى بيت الله الحرام، لَتَقِفُ عدْلاً لِكُلِّ ما اجترحْتَ مِنْ سيِّئاتٍ، حتَّى تعودَ كيَوم ولَدَتْكَ أُمُّكَ ما اجْتَنَبْتَ المظالمَ. وإنَّ ركعتين في جوفِ الليل الغابرِ حين تَغورُ النُّجُومُ وتَشْتَدُّ الظُّلْمَةُ ويَسْكُتُ الحِسُّ، لَتُنِيرَانِ القبرَ بنورِ يملأُ بين السماءِ والأَرض. ولِلكلمةِ الحسنةِ تَلْفُظُونَها عدلٌ لا يُوازَى مِنْ حسناتٍ أَنْتُمْ أَحوجُ ما تكونونَ إليهَا؛ ولِلهُجْرِ مِن القولِ تَسْكتون عنه حِلْمًا، أَثَرٌ كبيرٌ فِي رضَى الحقّ عنكُم يومَ الوقفِ العظيم. وأَكثروا ـ بَنِيَّ ـ مِن الصَّدَقَةِ سِرًّا، فإِنَّها تُطْفِئُ غضبَ الرَّبِّ. وعليكم بِصِلَةِ الرَّحِم فإِنَّها مَنْسأةٌ للعُمُرِ.

هِجِّيرُ المؤمِن

واجعَلُوا ـ بَنِيَّ ـ الحياةَ الدنيا مَجلسين: مَجلسٌ فِي طلبِ الآخرةِ، ومجلسٌ فِي طلب الحلالِ، ولا تَعْتَدُوا الثَّالثَ فتهلكوا. فإِنَّ العاقلَ – بَنِيَّ– مَن جَعَلَ ظعنه فِي ثلاثٍ: تَزَوُّدٌ لِمَعَادٍ، أَو مَرمَّةٌ لِمَعَاشٍ، أَو لَذَّةٌ فِي غيرِ مُحَرَّم. فكونوا –بَنِيَّ– بَصيرينَ بزمانِكم، مُقبلينَ على شَأْنِكُم، حافِظِينَ لِلسَانِكُم؛ لأَنَّ {مَنْ حَسِبَ كلامَهُ مِنْ عملِه قلَّ كَلاَمُهُ إِلاَّ فيما يَعْنِيهِ}١.

١/ هذه الجُمَلُ من ما جاء في صحف إبراهيم عليه السلام كما في الحديث الطويل الذي أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصحَّحه، عن أبي ذر رضي الله عنه وفيه: {وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه مقبلاً على شأنه حافظًا للسانه، فإنَّ مَن حَسِب كلامَه مِن عمله أقلَّ الكلامَ إلا فيما يعنيه، ولا يكون المؤمن ظاعنًا إلا في ثلاث: مرمَّة لمعاش، أو تزوُّد لمعاد، أو تلذُّذ في غيرِ مُحَرَّمٍ}. وقال السيوطي في الدر المنثور: أخرجه عبد بن حميد وابن مردويه

وكونُوا – بَنِـيَّ– مِن العقلِ والحَزم والبَصـرِ ببـواطن الأُمـورِ بحيـثُ لا تلْفِتَتَّكُم الدُّنيا عَن هِجِّيرِكُم[1] فَنِعْمَ الهِجِّيرُ هو. ولا تَنْظُرُوا بعينِ التَّمَنِّـي لِمَن ارتفعتْ بِهِ مَركِباتُ الدُّنيَا فوق سَمائها، فإِنَّ النَّاقِصَ - بَنِيَّ - مَن ارتفعتْ بِهِ كَفَّةُ ميزانِ الدُّنيَا إِلى مغاليق أَبوابِ المادَّةِ منها، فتَحَوَّزهَا ولم يَلْوِ على شيئ سِوَاها!؛ والكاملُ مَن هَوَتْ به الكفَّةُ إِلى دَرَجة الكَفافِ، لأَنَّ فِي الكَفافِ كِفَايةٌ.

والعارفُ ثقيلُ الوطأةِ على الدُّنيا، مَتَى ما وُضِعَ فِي مِيزانها طاشَ بِها إِلى دَرَكَاتٍ سحيقةٍ مِن الرَّفْضِ والزُّهدِ. أَما الجاهلُ – بَنِيَّ– فهُوَ مَنْ طارَ قَلْبُهُ شَعَاعًا في طلبِ الدُّنيا، حتى سَقطَ مِنْ عَيْنِ الحَقّ الَّذي كان يملأُ قَلْبَهُ، فَخَفَّ بفقدانه الحقَّ، فاسْتَخَفَّتْهُ الدُّنيا، فَعَلاَ في مِيزانِها، حَتَّى صارَ حِجَابًا لكثيرِ مِن الضِّعَافِ، الذينَ لَمْ يَدْرُوا أَنَّ الفارِغَ أَكْثَرُ ارْتِفاعًا فِي سماءِ الدُّنيا مِن الْمَلِيئ!!!.

وابن عساكر. وانظر: [صحيح ابن حبان، ج: ٢ ص: ٧٨]. و[الجامع لمعمر بن راشد، ج: ١١ ص: ٢٢]. و[شعب الإيمان للبيهقي، ج: ٤ ص: ١٦٥].

[1]/ **هِجِّيرُكُم**: الهِجِّيرُ: الدَّأبُ والعَادَةُ والدَّيْدَنُ. وفي القاموس: يقال: هذا هِجِّيرُهُ وهِجِّيراهُ: أي: دَأْبُهُ وشأنُهُ. وفي اللسان: هِجِّيرَى الرَّجُلِ كلامُه ودأْبه وشأْنه؛ قال ذو الرمة:

رَمَى فأَخْطَأَ والأَقْدارُ غالِبَةٌ ... فانْصَعْنَ والويلُ هِجِّيراه والحَرَبُ

قال الجوهري: الهِجِّير: الدَّأْبُ والعادة، وكذلك الهِجِّيرى. وفي حديث عمر ﵁ [ما له هِجِّيرَى غيرها]. هي الدَّأْبُ والعادةُ والدِّيْدَنُ. [لسان العرب، ج: ٥ ص: ٢٥٤].

ثم كونوا ـ بَنِيَّ ـ عبيداً في غناكم، سادةً فِي فقركم، تَصِلوا الكمالَ، وتكونوا مِن أَولياءِ الله حقًّا. لأَنَّ مَنْ أَغناكَ فقد ولاَّكَ. وأَشرفُ الولايةِ وأَسْنَاهَا ما كَانَتْ على النَّفسِ. فإنَّ السعيدَ حقًّا مَن وفَّقَهُ اللهُ إلى الولايةِ على نفسِهِ، لأَنَّ في الولايةِ على النَّفسِ والغَلَبَةِ عليهَا إِجْبَارٌ للجوارح بالمبايعةِ على السَّمْع والطاعَةِ لأَمر الحَقّ فِيمَا أَحبَّ الإِنسانُ وكرِهَ؛ وهَذَا فِي مقام الأَنبياءِ عصْمةٌ، وعلىَ مدارج الأَوليَاءِ حفظٌ[1]. فاحفظوا اللهَ – بَنِيَّ– في أَحْوالكُم وأَنْفاسِكُم يَحفَظْكُمْ في مَآلِكُم.

ولا تَسْتعمِلُوا ماءَ الحقيقة[2] ـ بَنِيَّ ـ فيما تُريدونَ فإِنَّ {الخلقَ كُلَّهم عيالُ اللهِ وأَحبّهُمْ إِلى اللهِ أَنْفَعهُم لعيالِهِ}[3]. ومَنْ أَبْدَى الحقيقةَ للمُرادِ النَّفْسِيَّ حَجبَهَا الحَقُّ عَنْهُ في المُرادِ الإِلهِي. واللهُ غالبٌ على أَمْرِهِ.

١/ ويقول الأستاذ المؤلف في موضع آخر من هذا الكتاب: [ولا شرَّ مع العِصمةِ، كما أنَّه لا إصرارَ على ذنبٍ مع الحِفظ]. ونقل الإمام النَّووي عن الإمام القشيري قوله: فإن قيل هل يكون الولي معصوماً أم لا؟. قلنا: أما وجوبًا كما يُقال في حقِّ الأنبياء فلا، وأما أن يكون محفوظاً حتى لا يُصِرّ على الذنوب، وإن حصلتْ هفوات في أوقات أو آفات، أو زلاّت، فلا يمتنع ذلك في وصفهم. [بستان العارفين، للنووي، ص ١٦٩].

٢/ ماء الحقيقة: خاصِّيَّةُ وصلاحيَّةُ التَّصرُّفِ في الأشياءِ على وجْهٍ يخرق العادة– الكرامة–.

٣/ أخرج ابن عدي في الكامل والبزار في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ { الخَلْقُ كلهم عيال الله أحبهم إلى الله أنفعهم لعياله}. [الكامل، ج: ٧ص: ١٥٣]. و[مسند أبي يعلى، ج: ٦ ص: ٦٥]. و[شعب الإيمان، ج: ٦ ص: ٤٣]. قال العجلوني: له طرق بعضُها يقوّي بعضًا. قال العسكري هذا الكلام على المجاز

فاستعملوا ماءَ الحقيقةِ وفقَ أَوامرِ اللهِ ونَواهِيهِ تكونُوا مِنْ أَهْلِ الكَمَالِ. ولتكونوا –بَنِيَّ– مصابيحَ اللَّيْلِ، ينابيعَ العِلْم، خُلُقَ الثِّيابِ جُدُدَ القلوبِ، تُذْكَروا به في الأَرضِ وتُعْرَفُوا بِهِ فِي السَّماءِ.

رواةُ العِلم ورُعاتُه

وإذا سمعتُمُ الحديثَ ـ بَنِيَّ ـ عن رسول الله ﷺ فاعْقِلوْه عقْلَ رعايةٍ، ولا تقفوا مع عقلِ الرِّواية، فإنَّ رُوَاةَ العِلْم كثيرون ولكنَّ رُعَاتَهُ قليلُونَ. {وكُلُّكُم رَاعٍ وكُلُّكُم مَسئولٌ عن رعيَّتِهِ}[1]. وَلْتَعْلَمُوا –بَنِيَّ– أَنَّ أَوضعَ[2] العِلْم وأَدْنَاهُ ما وُقِفَ علَى اللِّسَانِ، وأَرفَعَهُ وأَسنَاهُ ماظَهَرَ علَى الجوارح.

واعلمُوا ـ بَنِيَّ ـ أَنَّ {الفقيهَ كلَّ الفقيه الذي لا يُقْنِطُ النَّاس من رحمةِ اللهِ، ولا يُؤَمِّنُهُمْ مِنْ عذابِ اللهِ، ولا يُرَخِّصُ لَهم في مَعاصِي اللهِ، ولا يَدَعُ القرآنَ رغبةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِه. ثُمَّ إِنَّه لا خيْرَ في عبادةٍ لا عِلْمَ فِيهَا، ولاخيرَ في علم لا عملَ بهِ، كَمَا أَنَّهُ لا خيْرَ في قراءَةٍ لا تَدَبُّرَ فيهَا}[3]. واعلموا –بَنِيَّ– أَنَّ المتقينَ سادةٌ، والفقهاءَ قادةٌ، فاجمَعُوا بين السِّيَادةِ والقِيادةِ تكونوا مِن أُولي الأَمْر.

والتَّوسُّع كأنَّ الله لمَّا كان المتضمِّن بأرزاق العباد والكافل بهم كان الخلق كالعيال له. [كشف الخفا، ج: ١ ص: ٤٥٧].

[1]/ رواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. [صحيح البخاري، ج: ١ ص: ٣٠٤]. و[صحيح مسلم، ج: ٣ ص: ١٤٥٩].

٢/ أوضع: أخَسُّ.

٣/ رواه الدَّارمي والديلمي وأبو نُعيم الأصفهاني في الحلية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه موقوفاً. [سنن الدَّارمي، ج: ١ ص: ١٠١ الحديث رقم: ٢٩٧]. و[الفردوس بمأثور الخطاب، ج: ١ ص: ١٣٥]. و[حلية الأولياء، ج: ١ ص: ٧٧].

أنا الشاهد من خلفكم بأنوار اليقين

إِيْـهِ – بَنِـيَّ– لا تَهُـولَنَّكُم المواقـفُ، ولا يَـذْهَبَنَّ بكـم الحُـزْنُ والأَلـمُ مَذاهِبَـهُ، ولا يَقِفنَّ عقلُ أَحدِكُم عـن التَّفكيـر جَزَعًـا، إِذا جُوبَـهَ بمـا لَـمْ يَتَوَقَّعْ!!.

وفِيْمَ الجَزَعُ؟! أَلِئَنْ استوتْ شمسُ حَقيقَتِي[1] عندَ الزوالِ؟ جَزِعْتُم؟!! ألا تعلمـون أَنَّ الظِـلَّ باسـتواءِ الشـمسِ يَـزُولُ؟! ولـئِنْ كانـتْ أَنْـوارُ ظِلِّـي بالحياةِ أَمَامَكم، تَنيرُ لَكُمُ الطَّرِيقَ إِلى اللهِ، فَهِيَ اليومَ بالزَّوالِ خَلْفَكُم، تَحْمِي ظُهُورَكُم مِنْ ظُلُماتِ الأَغْيَار وهِيَ هِيَ الأَنوارُ وإِنْ بَعُدتْ هَوْناً. فلاَ تَجْزَعُوا – بَنِيَّ– فأَنْتُمُ اليومَ بأنوارِ الحَيَاةِ أَمامِي، وأَنَا الشَّاهِدُ مِنْ خَلْفِكُمُ بـأَنْوارِ اليَقْـينِ!!. أَفَمَنْ يتلُـوه شـاهِدٌ مِـنْ أَهْلِـهِ، كَمَـنْ مَثَلُـهُ فِـي الظُلُماتِ ليسَ بِخارجٍ مِنْها ؟! فَأَنَّى تُصْرَفُون أبنائي!؟.

أَقولُ لكم –بَنِيَّ–، لا تَحْلَمُوا بالموتِ فتقتلوا الحياةَ، ولا تنسَوا الموتَ فِـي الحيـاةِ فيأْخُـذكم الحـقُّ أَخْـذَةَ الأَسـيفِ[2]، بَـلْ {إعمـل لـدنياكَ كَأَنَّـكَ تعيشُ أَبَداً، واعْمَلْ لآخرَتِكَ كأَنَّكَ تموتُ غدًا}[3].

---

[1]/ استواءُ شمس الحقيقة: كناية عن حُلُولِ الأجلِ ولقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

٢/ الأسيف: الغضبان. "التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي. ج: ١ ص: ٦٢"، وفي الحديث سُئلَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن موت الفجأة فقال: {راحةٌ للمؤمن وأَخْذَةُ أَسَفٍ–أو أَسِفٍ– للكافر}. أيْ أخذةُ غَضَبٍ أو غَضْبان. [النهاية، ج: ١ ص: ٤٨].

٣/ أورده القرطبي بلفظه في تفسيره عن ابن عمر رضي الله عنهما موقوفاً، إلا أنه قال في أوله: {احرث}. بدل {إعمل}. انظر تفسير القرطبي، ج: ١٣ ص: ٣١٤]. وأخرجه

ولا تَشْغِلَنَّكُم دُنياكُمْ – بَنِيَّ– عن آخِرَتِكُم، ولاتُؤثِرُوا أَهْواءَكُم علَى طاعةِ رَبّكُمْ، ولا تجعلوا إيمَانَكُم ذريعةً لِمَعَاصيكم. فقدْ عَلِمْتُم قولَ

رَسُوْلِنَا الكريم ﷺ {أَنَّه لا إيمَانَ لِمَنْ لا أَمانةَ لَه}[1]. {والمؤمنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى حَوائِجِهم}[2].

أمورُ الدُّنيا لا تَعْدُو ثلاثة

وحَاسِبُوْا . بَنِيَّ . أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا ومَهِّدُوا خيْرَ المِهَادِ قَبْلَ أَنْ تَفِدُوا إِلَى شَوكِ القَتَادِ، وتزوَّدُوا للرَّحيلِ، قبلَ أَنْ تُزْعَجُوا عن الزَّادِ بالرَّحيلِ إلى الحَقّ يومَ التَّنادِ، ولاَ يَغُرنَّكُم باللهِ الغَرورُ[3] ولا يُزَيّنَنَّ لَكُم الشَّيطانُ سُوءَ أَعْمَالِكُم، فإِنَّمَا هُوَ موقِفُ عَدْلٍ، واقْتِضاءُ حَقٍّ، وسُؤالٌ

البيهقي والعسكري والحارث بن أبي أسامة عن عمرو بن العاص ﷺ مرفوعاً. [شعب الإيمان، ج: ٣ ص: ٤٠٢]. و [مسند الحارث بن أبي أسامة، ج: ٢ ص: ٩٨٣].

١/ رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي في السنن الكبرى وابن أبي شيبة في المصنف عن أنس ﷺ مرفوعاً. ورواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضي الله عنهما. [صحيح ابن حبان، ج: ١ ص: ٤٢٢]. و[سنن البيهقي الكبرى، ج: ٩ ص: ٢٣١]. و[مصنف ابن أبي شيبة، ج: ٦ ص: ١٥٩].

٢/ أخرجه الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ: {والمؤمن مَن أمِنَه الناسُ على دمائهم وأموالهم}. [سنن الترمذي، ج: ٥ ص: ١٧]. و[المستدرك على الصحيحين، ج: ١ ص: ٥٤].

٣/ الغَرور: الشيطان، يَغُرُّ الناس بالوعد الكاذب والتَّمْنِية. قال الرَّاغب في مفردات ألفاظ القرآن: الغَرور: كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فُسّرَ بالشيطان إذ هو أخبث الغارّين، وبالدنيا لما قيل: الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمرُّ.

وجـوابٌ. فَمَـنْ أَحْسَـنَ مِـنْكُم –أَبنَـائِي– فلِنَفْسِـهِ أَحْسَـنَ، ومَـنْ أَسَـاءَ فَعَلَيْهَا، ولاَ يَظْلِمُ ربُّك فَتيلاً[1].

ولقد بَلَـغ فـي الإِعْذَارِ مَن تَقَدَّم بالإِنـذَارِ، فاسْمَعُوا واعقِلُـوا ـ بَنِـيَّ ـ ولا يَسْتَخِفَنَّكُم فِـي الـدُّنيَا فَرَحٌ ولاَ تَـرَحٌ، فإِنَّهَـا الـدُّنْيَا كـذلِكَ! مـا نَظَـرَ إِليهـا حَصِـيفٌ[2] نظـرةَ اعتبـارِ إِلاَّ وجدَ فيهـا العِبـرةَ لِمَـنْ اعتبـرَ. فكونـوا مِـن العقلِ بحيثُ لا يَلْتَبس عليكم أَمْرٌ من أُمـور الـدُّنيا، ولا تعـدو أُمُوْرُهـا ثلاثةً:

١. أَمـرٌ اسـتبانَ رُشْـدُه فـاتَّبِعُوه ولا تَلْـووا علـى شـئ سـواهُ وإِنْ كـانَ صعْبَ المُرْتَقَىَ بعيدَ المنالِ فإِنَّ الجَنَّةَ قد حُفَّتْ بالمكارهِ.
٢. وأَمْرٌ قد استبان غَيُّه فاجْتَنِبُوه ولا تَقْرَبُوهُ، مَهْمَا أُحيطَ بالـمُغرِيَاتِ وتَهَافَتَـتْ عليـهِ الشَّـهَواتُ {واسـتفتِ قلبَـكَ وإِنْ أَفتـاك النَّـاسُ وأَفْتُوك، فإِنَّ البِرَّ مـا اطْمَأَنَّتْ إِليهِ النَّفسُ، والإِثْمُ مـا حَـاكَ فـي الصَّدر وكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليهِ النَّاسُ}[3].

١/ فتيلا: الفتيل: ما يكون في شق نواة التمر وهو كناية عن الشيء القليل.

٢/ حصيف: جيّدَ الرَّأي مُحكَم العقل.

٣/ أخرجه أحمد والدارمي والطبراني وأبو يعلى من حديث وابصة بن معبد رضي الله عنه وأخرج مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البِرّ والإثم فقال: {البِرُّ حُسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهتَ أن يطّلع عليه الناس}. [مسند أحمد، ج: ٤ ص: ٢٢٨]. و[سنن الدارمي، ج: ٢ ص: ٣٢٠]. و[المعجم الكبير للطبراني، ج: ٢٢ ص: ١٤٨]. و[مسند أبي يعلى ج: ٣ ص: ١٦٢]. وانظر: [صحيح مسلم ج: ٤ ص: ١٩٨٠].

٣. وأَمرٌ اختلفَ عليكُم حالُهُ ولم تَدْرُوا وَجْهَهُ[١]، فَعَلَيْكُم –بَنِيَّ– أَنْ تَرُدُّوْهُ إِلى اللهِ ورسولِهِ، ولا تَتَقَحَّمُوا فيهِ بالرَّأْيِ والْهوَى، بَلْ نَفِّذوا قَولَهُ تَعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[٢]

واعلمُوا ـ بَنِيَّ ـ أَنَّ لِلَّهِ أَمْراً وإرادةً، فَرُوْا لأَنْفُسِكُمْ أَيّ المقامَين أَنْجَى لكُمْ؟، ولئِنْ اسْتُئْمِرْتُ لاخْتَرْتُ لكُمْ الثَّباتَ علَى أَمرِ اللهِ لأَنَّهُ ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[٣] ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾[٤] فلن يخرجَ كائنٌ عن إرادَتِهِ تعالى، فالْزَموا أَمرَ الحَقّ –بَنِيَّ– تكونُوا مِن أَهلِ الطَّاعاتِ. لأَنَّهُ مَنْ كانَ علَى أَمرِ الحَقّ فإِنَّهُ لا يتقيَّدُ إلا بالحقّ، ومَنْ لَمْ يَتَقَيَّدْ إلاَّ بالحَقّ كانَ بحَسَبِ الأَمْرِ، ومَنْ كَانَ بِحَسَبِ الأَمْرِ كانَ من المُتَّقِيْنَ، ومَنْ يَخْشَى الله ويَتَّقِهِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الأَمنُ وهُمْ مُهْتَدُون.

ولاَ يفُوتَنَّكُمْ ـ بَنِيَّ ـ الظَّفَرُ بأَمرين، خفيفٌ مؤنَتُهُمَا عظيمٌ أَجْرُهُمَا لم يُلْقَ اللهُ بِمِثْلِهِمَا، وَهُمَا الصَّمْتُ وحُسْنُ الخُلُقِ[٥].

١/ ومما يَعرِفُ به الإنسانُ ما التبسَ واختلفَ عليه من الأمور قولُ الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه: **[خيرُ العملِ ما أكرهتَ عليه نفسك]**، أيْ أكرهتَ نفسك تبتغي مرضاة الله بمخالفةِ هواك، فحينئذٍ يُرشدُك الله ويهديك لما يُحبُّه لك ويرضاه.

٢/ النساء: ٥٩.

٣/ البروج: ١٦.

٤/ هود: ٥٦.

٥/ روى ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت عن أبي الدرداء ﵁ قال قال النبي ﷺ {يا أبا الدرداء ألا أنبئك بأمرين خفيف مؤنتهما عظيم أجرهما لم يُلْقَ الله عزَّ وجل بمثلهما، طول

النُّقَبُ كثيرةٌ ولكنَّ العروسة واحدة

عِيشُوا ـ بَنِيَّ ـ في الحياةِ الدُّنيا بمنطق الإيمانِ الجازم بِحكمةِ اللهِ وعَدْلِهِ، وبالحُبِّ الفذِّ لله ولرسولِهِ، وبالعملِ الصَّادقِ لمرضَاةِ اللهِ، وبالحَركَةِ المُدركَةِ الواعيةِ الواعدةِ القويةَّ فِي سبيلِ إحقاقِ الحَقّ، واستَشْعِروا فِي كلِّ ذَلِكَ صريحَ الإخلاصِ وخلوصَ النِّياتِ، لأَنَّ خُلُوصَ النِيَّةِ فِي سبيلِ الحَقّ ـ بَنِيَّ ـ أَمرٌ يعلو علَى كلِّ واقع مَهْمَا استعلَى أَمْرُهُ واستطارَ شَرُّهُ.

واعلمُوا ـ بَنِيَّ ـ أَنَّ النُّقُبَ كثيرةٌ ولكنَّ العروسة واحدةٌ!! فاجْهَدُوا للظَّفَرِ بِهَا، ولنْ تَظْفَرُوا بِها إلاَّ بعد إيفائِهَا مَهْرَهَا! أَتَدرونَ ما مَهْرُهَا؟! إنَّهُ إظماءُ النَّهَارِ، وإسْهارُ الليلِ، وسِجْنُ اللِّسانِ إلاَّ عن حَقّ، وإفشاءُ السَّلامِ، وحُسْنُ المُعَاملةِ مع الأَنامِ، وتحليلُ الحلالِ وتحريمُ الحرام، وإطعامُ الطَّعَامِ، والصَّلاةُ باللَّيْلِ والنَاسُ نِيَامٌ. وإنَّ اللهِ يُعْطِي الدُّنيَا لِمَنْ أَحبَّ وأَبْغَضَ مِنْ عِبَادِه، ولا يُعْطِي الآخِرَةَ ـ بَنِيَّ ـ إلاَّ لِمَنْ أَحبَّ[1]. فكُونوا مِنْ أَبناءِ الآخرةِ تُفْلِحُوا.

الصمت وحُسن الخلق}. وانظر: [الترغيب والترهيب للمنذري، ج: ٣ ص: ٢٧٢]. و[شعب الإيمان ج: ٦ ص: ٢٣٩].

١/ أخرج أبو نُعيم الأصفهاني في الحلية من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: {إن الله تعالى قسَّم بينكم أخلاقكم كما قسَّم بينكم أرزاقكم، وإنَّ الله تعالى يعطي الدنيا مَن يحب ومَن لا يحب ولا يعطي الآخرة إلا مَن يحب، فمَن جَبُنَ عن المال أنْ ينفقه وخاف العدو أنْ يجاهده والليل أن يكابده فليكثر من قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر}. [حلية الأولياء، ج: ٥ ص: ٣٥]. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد

ليس بِغُرْمٍ ما عادَ بِغُنْمٍ

كونُوا ـ بَنِيَّ ـ فِي عُزُوفٍ عن الشَّهواتِ تَنْفَكُّوا مِن إِسَارِهَا، فإِنَّ مَنْ قَهرتْهُ الشَّهَواتُ كانَ عَبْداً لهَا، ومَنْ استعْبَدَتْهُ الشَّهوةُ ذَلَّ بِهَا.

وتذكَّروا قولَ رسولِنَا الكريم عليه أَفضلُ الصَّلاةِ والتَّسليم: {أَنَّه مَن اِشتَاقَ إِلى الجنَّةِ سارعَ في الخيرات، ومَن أَشْفَقَ مِن النَّارِ لَهَا عن الشَّهواتِ}[1].

واتقوا ـ أَبْنَائِي ـ الظُّلْمَ فإِنَّهُ ظُلماتٌ يومَ القيامةِ. وتَوَقُّوا دعوةَ المظلوم فإِنَّما يسأَلُ اللهَ حّقَّهُ، وإِنَّ اللهَ لا يمنعُ ذا حَقّ حَقَّهُ ولو بعدَ حِينِ.

واعلموا ـ بَنِيَّ ـ أَنَّ الشَّاكرَ مُزَادٌ. والتَّقْوَى خَيْرُ زادٍ. وليكُن أَوْلَى الأُمورِ بِكُم الشُّكرُ للهِ وحُسْنُ النيَّةِ فِي السِّرّ والعلانيَّةِ. وَلْتَتَمَثَّلوا قَولَ الحُطَيْئَةَ[2]:

والحاكم وابن أبي شيبة والطبراني، وفيه: {ولا يعطي الإيمان}. بدل قوله: {ولا يعطي الآخرة}. [الأدب المفرد، ج: ١ ص: ١٠٤]. و[المستدرك على الصحيحين، ج: ١ ص: ٨٨]. و[مصنَّف ابن أبي شيبة، ج: ٧ ص: ١٠٥]. و[المعجم الكبير للطبراني، ج: ٩ ص: ٢٠٣].

١/ رواه الديلمي من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً { مَنْ اشتاق إلى الجنة سارع في الخيرات ومَن أشفق من النار لَهَا عن الشهوات ومَن ترقَّبَ الموت هانتْ عليه اللذات ومَن زهد في الدنيا هانتْ عليه المصيبات}. [الفردوس بمأثور الخطاب، ج: ٣ ص: ٦٠٢].

٢/ الحُطَيئة: اسمه جَرْوَل بن مالك العَبْسي، ويكنى أبا مُلَيْكَة. ولقب بالحُطيئة لقِصَرِه. أدرك الجاهلية وأسلم في زمن الصديق رضي الله عنه، وكان كثير الهجاء وقد شكاه الناس إلى عمر رضي الله عنه فأحضره وحبسه، ثم أخرجه وأخذ عليه العهد أن لا يهجو الناس واستتابه. ويقال: إنه

ولستُ أرى السَّعادةَ جَمْعَ مَالٍ ... ولكــنَّ التَّقــيَّ هــو السَّــعِيدُ

وتقـوى الله خَيْـرُ الـزَّادِ ذُخْـراً ... وعنــــد الله للأتْقَـــى مَزيـــدُ

ومـا لا بـدَّ أن يـأتي قريـبٌ ... ولكــنَّ الــذي يمضــي بعيــدُ

وَلا تَزْهَدُنَّ ـ بَنِيَّ ـ في معروفٍ، فإِنَّ الدَّهرَ ذو صُروفٍ، والأَيام ذاتُ نوائبَ على الشَّاهِدِ والغائبِ، فكمْ مِن راغبٍ صارَ مَرغوباً إِليهِ، وطَالِبِ أَصبحَ مطلوباً ما لَدَيهِ.

فكونوا – بَنِيَّ – أَجواداً بالمال في مواضِع الحَقِ، بُخلاءَ بالأسرارِ عن جَمِيْع الخَلْقِ. فإِنَّ أَحْمدَ جُود الحُرِّ الإِنفاقُ في وجوهِ البِرّ، وإِنَّ أَحْزَمَ بُخْل الحُرِّ الضَّنُّ بِمُكَتَّمِ الأَسرار عن أَسماع الأَغيار[1].

أراد أن يقطع لسانه فشفعوا فيه حتى أطلقه. مات الحطيئة [سنة: ٥٩هـ]. [البداية والنهاية، ج: ٨ ص: ١٠٥].

١/ قوله: [الشَّاكرَ مُزَادٌ] إلى قوله: [وإِنَّ أحْزَمَ بُخْل الحُرِّ الضَّنُّ بِمُكَتَّمِ الأَسرار عن أَسماع الأَغيار]. فإنه من وصية عبد الله بن شداد العبدي لابنه، كما رواها الإمام الرافعي في التدوين، وفيها: عليك بتقوى الله العظيم وليكن أولَى الأمور بك شكرُ الله وحُسن النية في السر والعلانية فإن الشكور يُزاد والتقوى خير زاد. ثم قال: أي بني لا تزهدن في معروف فإنَّ الدهر ذو صروف والأيام ذات نوائب على الشاهد والغائب فكم مِن راغبٍ أصبح مطلوبًا ما لديه، أي بني كن جوادًا بالمال في موضع الحق بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق فإن أحمد جود المرءِ الإنفاق في وجه البر وإن أحمد بخل الحُرِّ الضَّنُّ بمكتوم السِّرّ.

وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً أقل ما تكون في الباطن مالا فإن الكريم من كرمت طبيعته وظهرت عند الإنفاد نعمته. أي بني وإن سمعت كلمة من حاسد فكن كأنك لست بالشاهد فإنك إن أمضيتها حيالها رجع العيب على مَن قالها وكان يقال الأريب العاقل هو الفطن المتغافل. أي بني إذا أحببت فلا تفرط وإذا أبغضت فلا تشطط، فإنه قد

فلا يَضيقَنَّ صَدرُ أَحدِكم – بَنِيَّ – عن ما استُودِعَ مِن سِرّ، لأَنَّ كَتْمَ الأَسرارِ منْ علاماتِ الإِقْبَالِ؛ وما أَباح كريمٌ سِرًّا إلاَّ حُرِمَ فَائِدَتَهُ، ولَمْ يَعُد مُؤتَمَناً؛ لأَنَّ الصَّدرَ الضَّيّقَ – بَنيَّ – لا تَحْسُنُ بهِ الوَلايَةُ؛ كما أَنَّ الرجلَ اللئيمَ لا يَحْسُنُ بِه الغِنَى.! و{لَيْسَ الغِنَى عن كَثْرَةِ العَرَض}[1].

واعلموا – بَنِيَّ – أَنَّ [الكريمَ، مَنْ كَرُمَتْ عِندَ الحاجةِ طَبِيعَتُهُ، وظَهَرتْ عِنْدَ الإِنْفَاذِ نِعْمَتُهُ] ولَئِنْ كانت الحوائجُ –بَنِيَّ– كالمغارِمِ لِمَنْ استَثْقَلَهَا، فَهِيَ مغانمُ لِمَنْ وُفِّقَ لَهَا، ولَيْسَ بِغُرْم مَاعَادَ بِغُنم، والحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمثالِهَا!! وليسَ بِضَائع ما اصْطُنِعَ في معروفٍ. [فإِنَّ العُرفَ لا يذهبُ بين اللهِ والنَّاسِ][2].

ومَا عَظُمَتْ نِعمةُ اللهِ عَلَى عبدٍ إِلاَّ عَظُمَتْ مَؤونةُ النَّاسِ عَلَيْه وكَثُرَتْ حاجتُهمْ إِلَيْهِ. فَمَنْ لَمْ يَحْتَمِلْ مؤونةَ الناسِ، عَرَّضَ تلك النِّعمة للزوالِ، وحُرِمَ المزيدَ.

كان يقال أحبب حبيبك هونًا ما عسَى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسَى أن يكون حبيبك يوما ما. [جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت، ج: ٢ ص: ٥٠٣– ٥٠٦]. وانظر: [التدوين في أخبار قزوين ج: ١ ص: ٢١٣– ٢١٤].

١/ أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: { لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلكِنَّ الْغِنَى غِنَي النَّفْس}. [صحيح البخاري، ج: ٥ ص: ٢٣٦٨]. و[صحيح مسلم، ج: ٢ ص: ٧٢٦].

٢/ أنشد الحطيئة بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ شعراً فاستجاد منه هذا البيت:

من يفعل الخيرَ لم يعدم جوائزَه   لا يذهب العُرْفُ بين الله والناس

الأَريبُ[1] العَاقِلُ هُوَ الفَطِنُ المُتغافِلُ

وإذَا سَمِعْتُمْ – بَنِيَّ – كلمةً مِنْ حاسدٍ، فكونوا كَأَنَّكُم لَسْتُمْ لها بِشَاهدين، ولتبدوا دَلِفِيْن[2] بِصِفاحِكُمْ عنها تَحلُّمًا، فإِنَّكُم إذا أَمضيتُموهَا حِيَالَهَا وقعَ إِثمُها علَى مَنْ قالَها، وإنَّ [الأَريبَ العَاقِلَ هُوَ الفَطِنُ المتغافلُ].

وإذا تجاهلَ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ، فَلْيَكُنْ لسانُ حَالِكُم قولَ الحَقّ تَعالَى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾[3] ولْتَتَمثَّلُوا قَوْلَ حَاتم طيئ[4]:

وَما مِنْ شِيمَتِي شَتْمُ ابنِ عَمّي   وَما أَنَا مُخْلِفٌ مَنْ يَرْتَجِينِي

وكلمةُ حاسدٍ مِن غيرِ جُرْمٍ   سَمِعْتُ فقلتُ مُرّي فَانْفُذِيني

١/ الأريب: من "أَرُبَ أرَابةً وإِرَبًا" : عقل وصار بصيرًا فهو أريب وأرِب.

٢/ دلفين: معرضين.

٣/ الفرقان: ٦٣.

٤/ حاتم الطائي: أحد أجواد الجاهلية، وهو حاتم بن عبد الله أبو سفَّانة الطائي، والد عدي بن حاتم الصحابي رضي الله عنه وكان حاتم جواداً ممدوحًا في الجاهلية، وكذلك كان ابنه في الإسلام، وكانت لحاتم مآثر وأمور عجيبة وأخبار مستغربة في كرمه.وروى البيهقي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ابنة حاتم كانت في سبايا طيء فقالت للنبي ﷺ: يا محمد: إنْ رأيتَ أنْ تُخلِّي عني ولا تشمتْ بي أحياءَ العرب، فإني ابنة سيّد قومي، وإنَّ أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، وأنا ابنة حاتم طيء. فقال النبي ﷺ { خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق}. البداية والنهاية، ج: ٢ ص: ٢٧٣].

فَعابُوهــا عليــه ولــمْ تعبْنِــي ولـم يَعْـرَقْ لَهـا يومًـا جَبينِــي
وذو الــوَجْهَيْن يلقــانِي طَليقًــا ولــيسَ إِذا تَغَيَّــبَ[1] يــأْتَلِينِي[2]
بَصُــرْتُ بِعَيْبِــهِ فَكَفَفْــتُ عَنْــهُ مُحافظــةً علَــى حَسَــبِي ودِينِــي

وكونوا – بَنِيَّ– المعنَى الشَّاخِصَ، والمَثلَ الحَيَّ لقولِ هُدْبَةَ بنِ الخَشْرَمِ العُذْرِيّ[3]:

وكُنْ مِعقَلاً للخيرِ **واصفحْ عَنِ الخَنَى** فإنَّــك راءٍ مــا حُيِيْــتَ وســامعُ
وأَحْبِــبْ إذا أَحْبَبْــتَ حُبًّــا مُقارِبًــا فإنَّـكَ لا تـدري متَـى أنـتَ نـازعُ
وأَبغِضْ إذا أَبْغضتَ بُغضاً مُقارِبًا فإنَّـكَ لا تـدري متَـى الـوُدُّ راجـعُ

١/ تغيَّبَ: بمعنى اغتاب، والغيبةُ ذِكْرك أخاك بما يكره.

٢/ يأتليني: أيْ ينقصني.

٣/ هدبة بن الخشرم: قال أبو الفرج الأصفهاني: هو هدبة بن خشرم بن كرز، وهو شاعر فصيح متقدِّم من بادية الحجاز وكان يروي للحطيئة، [الأغاني ج: ١٠ ص: ٢٥٨]. وقد روى هذه الأبيات البيهقي في شعب الإيمان والرافعي في التدوين، عن أبي إسحاق السبيعي عن علي بن أبي طالب ﵁ انظر: [شعب الإيمان، ج: ٥ ص: ٢٦٢]. و[التدوين في أخبار قزوين ج: ٣ ص: ٣٠]. و[كشف الخفاء ج: ١ ص: ٥٥].
إلا أنهم رووا البيت الأول هكذا:

وكن معدنًا للخير واصفح عن الأذَى فإنــك راءٍ مــا عملــتَ وســامع

وكذا أورده المناوي في فيض القدير وقال إنه من شعر هدبة بن خشرم. [فيض القدير، ج: ١ ص: ١٧٦]. وهو في جمهرة خطب العرب: [وكن معقلاً للحلم]. [جمهرة خطب العرب، ج: ٢ ص: ٥٠٣].

إيَّاكم والإعجاب إنْ وُفِّقْتُمْ للصَّواب

وإيَّاكُمْ – بَنِيَّ– والإعجابَ بأَنْفُسكُمْ إنْ وفَّقَكُم اللهُ لِمَا فيهِ الخَيْرُ، واحذروا الثِّقةَ بِمَا يُعْجِبُكُمْ من نُفُوسِكُمْ وما يُبْطِرُكُم على أَهْلِيكُم بمدِّ الأَعناقِ والتَّوْقِ للمدح وحُبِّ الإطراءِ، فإنِّي وجَدْتُ ذلَكَ مِنْ أهْنَأ فُرصِ الشَّيطانِ، ومِن أوثَقِ أحابِيلِه فِي نفسِه، ليُتبِّرَ [1] بِها مايكونُ مِنْ إحسانِ المُحْسنين، وإعاقةِ المُتَجرِّدين في سَيرِهم إِلى اللهِ.

عَلَيْكُمْ - بَنِيَّ - بإيثارِ ذوي الأَخلاقِ الحَسَنَةِ عَلَى غيرِهِمْ فِي مَجالسِكُم، فإنَّ ذلَكَ أَزْيَن لِمَجَالِسكُم، وأملَك لِشُجونِ أَحَادِيثِها. وفَضِّلوا– بَنِيَّ– الفِقْهَ وأهلَهُ عَلَى بقيةِ الصَّنَائع. ولَئِنْ سلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وسلَكَ أَهلُ الدِّينِ والصَّفَاءِ ذوي المروءةِ والشَّرَفِ شِعْبًا، فاسْلُكوا شِعْبَ الدِّين وحَمَلَتِه.

وكونوا أقْمَاراً يَهْتَدِي بِكم السَّارِي، تَحمِلُون كِتَابَ اللهِ وأَنتُمْ سابِقونَ بالخيْراتِ، عَامِلينَ بأَدَقِّ الإشارات، قائمينَ بكُلِّ الواجباتِ، تتَأَوَّلونَ مَرامِيَّهُ وتَتَأَثَّرُون خَطْوَ نَبيِّكُم الكَريم عليهِ أَفضلُ الصَّلاةِ والتَّسليم، حَتَّى تزدانُوا بِخِلَعِه السَّنِيَّةِ. وإنَّ أَفْضَلَ ماتَزَيَّنَ بهِ المرءُ الفقهُ فِي دينِ اللهِ، وأَكرَمَ ما تَحلَّى بِهِ عبدٌ تقْوَى اللهِ وحُسْنُ الخُلُقِ. فاطلبوا العِلْمَ باللهِ - بَنِيَّ - وحُثُّوا عليه ونَقِّبُوا عَن المعْرِفَةِ بأحكام اللهِ، ودلُّوا عليها فإنَّ {الدَّالَّ علَى الخَيْرِ كفاعلِه}[2]. واحرصوا علَى المعرفةِ بِمَا يُتَقرَّبُ به إلى اللهِ،

١/ لِيُتَبِّرَ: لِيُهْلِكَ ويُدَمِّرَ.

٢/ أخرجه الترمذي من حديث أنس ﷺ مرفوعاً. وأخرجه أبو داود والبخاري في الأدب من حديث أبي مسعود ﷺ بلفظ: {مَن دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله}. [سنن

فإنَّـه الـدَّليلُ علَـى الخيْـرِ كُلِّـه والقَائِـدُ لـه، والآمـرُ بـهِ والنَّـاهِي عَـن المعَاصي والمُوبقاتِ كُلِّها.

واحذروا ـ بَنِيَّ ـ السَّرَفَ والإفراطَ فِي كُلِّ ما تَأْتُونَ، ولْتَعْلَمُوا إِلى جانبِ ذلكَ أَنَّه [لا سَرَفَ فِي الخَيْرِ كَمَا أَنَّه لا خَيْرَ فِي السَّرفِ][1] وَلْتَزِنُوا أَعمَالَكُم بميزانِ الاقتصادِ، ولْتُرَجِّحُوا كَفَّةَ الاعتِدَالِ، فليسَ هنالِكَ شيءٌ أَبْيَنُ نفعًا، ولا أَلْزَمُ أَمْنًا، ولا أَدْعَى فَضْلاً مِن الاعْتِدالِ، لأَنَّهُ داعِيةُ الرَّوِيَّة والأَنَاةِ، وهُما يَقُودان إِلى الرُّشدِ، والرُّشْدُ دليلُ التَّوفِيق، ومَنْ وُفِّقَ فيمَا يأْتِي فقَدْ دُرجَ بهِ إِلىَ مقام السعادةِ وقِوام الدِّينِ. فآثروا ـ بَنِيَّ ـ الاعْتِدالَ والاقْتصادَ فِي كُلِّ أُمُورِ دُنْيَاكُم، لأَنَّ القَصْدَ فِي الدُّنْيا يُورِثُ العِزَّةَ، ويُحَصِّنُ مِنَ الذُنوبِ. واحذروا ـ بَنِيَّ ـ أَنْ تتَقَاعسَ بأَحدِكُم هِمَّتُهُ عَن طِلْبَةِ الآخرةِ وطِلابِ الأَجْرِ بالأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، ولْتَعْلَمُوا أَنَّه لا غَايةَ للاسْتِكْثَارِ مِن البِرّ، ولا حَدَّ للعَمَلِ الصَّالِح والسَّعْي لَهُ، ما دامَ يُطْلَبُ بهِ وجْهُ اللهِ ومرضاتُهِ، للفوزِ بِقُرْبِهِ ومُرافقةِ أوليَائِهِ فِي دارِ المقامَةِ والكَرامة.

الترمذي، ج: ج: ٥ ص: ٤١]. و[سنن أبي داود: ج: ٤ ص: ٣٣٣]. و[الأدب المفرد، ج: ١ ص: ٩٤].

١/ هذه العبارة تنسب لحاتم الطائي كما أوردها القرطبي في تفسيره. وأوردها الحموي في خزانة الأدب للحسن بن سهل. وكذا صاحب المستطرف، فقال: وقيل للحسن بن سهل: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير فقلب اللفظ واستوفي المعنى. [الجامع لأحكام القرآن، ج: ٧ ص: ١١٠]. و[المستطرف في كل فن مستظرف ج: ١ ص: ٣٤٥]. و[خزانة الأدب، ج: ١ ص: ٣٥٥].

لا يَغرَّنَّكم المُحَسِّنون لِمَا جَهِلوا

عَلَيْكُمْ ـ بَنِيَّ ـ بمراجعةِ عَمَلِكُم وإحصاءِ كَلِمِكُمْ بِعَرضَهِ عَلَى الحَقّ، فإنْ رَجحَ فِي ميزانِهِ فاثبتُوا عليْهِ، وإنْ خَفَّ فِي مَوَازِينِهِ فاجْتَنِبُوهُ. ولايغرَّنَّكُمْ بأَنفُسِكُمْ المُحَسِّنُونَ لِما جَهِلوا، القَائلونَ بِمَا لَمْ يَعلمُوا؛ فكُلُّ أَحدٍ ـ بَنِيَّ ـ أَعْلمُ بِنَفْسِهِ مِنْ غيرِه، فلا يَغرَّنَّكم بها غَرَّارٌ، ولْتَعلمُوا منها ما يَجْهلُهُ غَيْرُكُمْ، فَتعْكِفُوا عليهِ تَثقِيفًا وتَقْويمًا. ولينفردْ كُلُّ مِنْكُم ـ بَنِيَّ ـ بذلكَ في خُوَيْصَةِ نَفسِهِ، تَفَرُّدَ مَنْ يَعْلمُ أَنَّهُ خُلِقَ وحْدَهُ، وسَيَمُوتُ وَحْدهُ، وسوفَ يُبْعثُ وَحْدهُ، ويُحَاسَبَ وحدَهُ، ويُسْأَلُ عَن ما صَنعَ، ويُجْزَى بِمَا عَمِلَ وَحْدَهُ، يومَ لا يَجْزِي والدٌ عَنْ وَلَدِهِ ولا مُولودٌ هو جَازٍ عَن والدِهِ.

فاتَّبِعُوا نهجَ الحَقّ وهَدْيَ الدِّينِ وطريقَ الهُدَى، فإنَّ اللهَ قَدْ جَعلَ الدِّينَ حِرْزًا وعِزًّا. وما ابتغَى أَحدٌ العِزَّة والجاهَ فِي غيرِهِ إلاَّ أَذَلَّهُ اللهُ وأَكبَّهُ عَلَى وَجْهِهِ وإنْ أَمْلَى لَهُ طَويلاً.

وأنجِزوا ـ بَنِيَّ ـ العِدَةَ بالخيْرِ إذا وعدْتُم وإذا عاهدْتُم فإنَّ العَهدَ كَانَ مَسئُولاً، واقْبَلُوا الحَسَنَةَ مِنَ القَولِ والفِعلِ وادفعوا بِها، تُنْتِجُ بَيْنَكُمُ المودَّةَ والعَطْفَ. واخفِضُوا ـ بَنِيَّ ـ جَناحَ الذُّلِّ مِن الرَّحْمَةِ لِمَنْ كُبرَ مِنْ أَهلِيكُمْ، فإنَّ تَوقِير الكَبيرِ مِن السَّنَنِ القَويم، وغُضُّوا الطَّرْفَ ـ بَنِيَّ ـ عَن كُلِّ عَيْبٍ بَدَا لَكُم مِنْهُمْ، فإنَّه أَحْرَى أَنْ يَرْبطَ بيْنكُم برباطِ الثِّقَةِ والتَّقدِيرِ والرَّحمةِ.

ولْيَصُمْ كُلُّ مِنْكُم ـ بَنِيَّ ـ عَن الكَذِبِ وقَولِ الزُّورِ والعَمَل به، وحَرِيٌّ بِمَنْ صَامَ عَن الكَذِبِ أَنْ يُفْطِرَ بِحَلاوةِ الصِّدقِ في مَقامِ الصِّدِّيقيّةِ، فإنَّ

الصَّادقَ {لا يَزالُ يتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْد اللهِ صِدِّيقًا}[1]، دُونَما تَعَبٍ ونَصَبٍ غيرَ أَنْ أمْسَكَ عَلَيْهِ لِسَانَهُ عن الكَذِبِ وهَذرِ القَول.

واجلوا ـ بَنِيَّ ـ أَهلَ النَّميمَةِ عَن رُبُوعِكُم، لأَنَّ النَّميمةَ خَاتِمَةُ المآثم، إذ لا يُقَالُ[2] صاحِبُها، ولا يَسْلَم لِمَنْ حَملَها صاحبٌ، كَمَا لا يَستقيمُ لِمَنْ صَغَى لها أَمرٌ. فاحْذَرُوهَا فإِنَّها نارٌ تأَجَّجُ بِسُوءِ الظَّنِّ وفَسَادِ الطَّوِيَّةِ.

وواصلوا ـ بَنِيَّ ـ الضُّعفاءَ مِن قَوْمِكُم وَصِلُوا أَرحَامَكُم، وابْتغُوا بِذلِكَ وجهَ اللهِ، وعِزَّةَ أَمرِهِ في الدُّنيا، وحُسنَ ثوابِ الآخرةِ.

وقومُوا ـ بَنِيَّ ـ فِي أَحبَابِكُم بالحَقّ واسعُوا بينهُم بالمعْرِفَةِ والإِصلاح الَّذي يَنْتَهي بِكُمْ وإِيَّاهُمْ إِلى سبيلِ الهُدَى.

وآثِروَا ـ بَنِيَّ ـ الوقارَ والحِلْمَ والرِّفقَ؛ واجْتَنِبوا العَجَلةَ والحِدَّةَ والطَّيْشَ والغُرورَ فِيما أَنْتُم بِسبيلِهِ، فإِنَّ الحِدَّةَ أَلْغامٌ مُتَفجِّرةٌ تَصدُّ النَّاسَ عَن طريقِ الحَقّ، وإِنَّ في الطَّيْشِ والغُرورِ لغشاوةٌ تَسُدُّ مَنافِذَ القلبِ فلا يُجَادُ[3] بنُورِ الحِكْمَةِ، وإِنَّ فِي العَجَلةِ فَواتٌ لِكُلِّ أَمرٍ كَانَ حَرِيًّا بالإِدراك.

١/ أخرجه الشيخان وغيرهما. انظر: [صحيح البخاري، ج: ٥ ص: ٢٢٦١ و[صحيح مسلم، ج: ٤ ص: ٢٠١٣].

٢/ **لا يقال:** الإقالة لغة: الرفع، وشرعاً: رفع العقد، وفي الحديث: {من أقال نادمًا بيعتَه، أقال الله عثرته يوم القيامة}،{أقاله}: أي وافَقَه على نَقْض البيع وأجابه إليه. وتكون الإقالة في البَيْعة والعَهْد. وأَقالَ الله فلانًا عثرته، بمعنى الصَّفْح عنه. وفي الحديث: {أَقِيلوا ذَوِي الهيئَات عَثَرَاتِهم}.

٣/ **لا يُجادُ:** أيْ لا يُتَكَرَّم عليه.

إنَّ الله لا يرضى اختلاطَ المقاصِدِ وتبايُنَ النِّيَّات

عَلَيْكُمْ – بَنِيَّ – أَنْ تَسْتَشْعِرُوا[1] ثوبَ الكَرامةِ باللهِ والعَافيةِ بِعزَّتِهِ. وأَظْهِرُوا فَضْلَ اللهِ عَلَيْكُمْ باعْتِصامِكُم بأوامرِهِ. وحافِظُوا عَلَى نَعْمائهِ بالوُقُوفِ عَلَى مقام شُكْرِهِ، فإِنَّ مَنْ شَكَرَ زادَهُ اللهُ خيْرًا، ومَنْ كَفَرَ بأنْعُم اللهِ فقَدْ عَرَّضَها للزَّوالِ وحُرِمَ المزيدَ.

واتقُوا – بَنِيَّ – مُمالأةَ[2] الحاسدِ فإِنَّ {الحَسَدَ يأكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تأكلُ النَّارُ الحَطَبَ}[3]، ولا تُصدِّقَنَّ نمَّامًا، لأَنَّ حَمْلَ الحَطَبِ بينَ النَّاسِ يَقْذِفُ بِصاحِبِهِ في نارِ جَهنَّم؛ والنَّمِيمةُ تُورِثُ البَوارَ وتَقْطَعُ أَواصرَ القُرْبَى والجِوَارِ.

ولاتَحْمِدُنَّ مُرَائياً – بَنيَّ – فإِنَّ الرِّياءَ نِفاقٌ، ومَنْ حَمِدَ النِّفاقَ فقَدْ عَصَى اللهَ. ولا تَحْقِرُنَّ إِنْسَانًا – بَنِيَّ – مهما ازدَرَتْهُ أعْيُنُكُمْ، أَودُفِعَ عَن أَبْوابِكُمْ، لأَنَّكُمْ بِضُعَفائِكُمْ تُرْحَمون؛ والإنسانُ هُو الإنسانُ، كَريمٌ عِنْدَ اللهِ حينَ خَلَقَهُ وشَرَّفهُ بالإِيمانِ، وأَحْرَى بِمَنْ كَرَّمَ اللهُ أَنْ يُكْرَمَ ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[4] نَعَمْ بَنِي آدَم دُونَ أَلْقَابِ وشَارَاتٍ، "فكُلُّكُمْ لآدَمَ وآدمُ مِنْ تُرابٍ".

١/ **تستشعروا:** أيْ تجعلوه شعارًا والشِّعارُ هو الثوبُ الملامسُ للجسد من الملابس.

٢/ **ممالأة:** مشايعة ومساعدة واجتماع.

٣/ قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة ﵁ وقال البخاري: لا يصح. وهو عند ابن ماجه من حديث أنس ﵁ بإسناد ضعيف، وفي تاريخ بغداد بإسناد حسن. اهـ. وانظر: [سنن أبي داود، ج: ٤ ص: ٢٧٦]. و[سنن ابن ماجه، ج: ٢ ص: ١٤٠٨]. و[تاريخ بغداد، ج: ٢ ص: ٢٢٧].

٤/ الإسراء: ٧٠.

لِتَكُنْ صُدُورُكُمْ - بَنِيَّ - رَحْبَةً لا تَضِيقُ بالتَّعَدِّي عَلَيْكُمْ؛ وَلْتَكُنْ مِيَاهُ وُجُوهِكُمْ ساكِنَةً حَالَيْ الرِّضَا والغَضَب، واحْرِصُوا أَلاَّ تُظْهِرُوا غَضَبًا ولا تَدْفِنوا حِقْدًا، لأَنَّ الذَّحْل[1] يَنْقُضُ ظَهْرَ الهِمَّةِ التي عَلِقَتْ بمعرفةِ اللهِ، وَلَيْسَتْ بقائمة على أَمْرِ اللهِ هِمَّةٌ أَنْقَضَ ظَهْرَهَا الحِقْدُ، وبَتَّ قُواهَا الحَسَدُ، وأضْعَفَ عَزِيمَتَها الحِرْصُ.

وحَاذِرُوا - بَنِيَّ - إِتْيَانَ البَذَخ وامتشاءَ المَرح، وارتكابَ السَّفهِ، فإِنَّ السَّفِيهَ ساقطٌ في عَيْنِ اللهِ كَمَا هُو ساقِطٌ في عينِ النَّاسِ. واعْلمُوا – بَنِيَّ – أنَّ الإنسانَ حيثُ وضَعَ نفْسَهُ، ومَنْ وَضَعَ نفْسَهُ مَواضِعَ الرِّيَبِ فلا يَلُومَنَّ مَنْ ظَنَّ بهِ الظُّنون. فليكِنْ - بَنِيَّ - فِعْلُكُمْ رشيدًا، وقَولُكُم حَمِيدًا. وتَجنَّبُوا الشَّيْطانَ لأَنَّ {الشَّيطانَ يجري في الإنسانِ مَجْرَى الدَّم}[2]، ولَنْ يَتَحَرَّزَ مِنْه إلا مَنْ حَفظَهُ الله وجَعَلهُ مِنْ المُخْلَصِين.

وتَجَنبَّوا - بَنِيَّ - دفْعَ الأَيَّام عِيَانًا[3]، ومُغَالبةَ القَدَر مِرَّةً[4]، فإِنَّهُ مِنْ فِعْلِ الجاهِلين، لأَنَّ ما قضَى الله كائنٌ ولابُدَّ. فلا تُفرِّطُوا – بَنِيَّ – في طلبِ الآخرةِ، وعَلَيْكُم بالعَمَلِ الصَّالِح الخالصِ لوجهِ اللهِ تَعَالَى، ولا تُعِلُّوهُ بما يُقَصِّرُ بهِ عَنِ الارتفاع إِلى رِضَى الله. ألاَ وإنَّ الله لا يَرْضَى اختلاطَ المقاصدِ وتبايُنَ النِّيَّاتِ؛ فأخلِصُوا أعمالَكُم لوجهِ الله، يَكْفِكُمْ ما أهمَّكُمْ مِنْ الوُجوهِ غيره.

١/ الذحل: الحقد.

٢/ رواه الشيخان عن صفية بنت حيي رضي الله عنها. [صحيح البخاري، ج: ٣ ص: ١١٩٥]. و[صحيح مسلم، ج: ٤ ص: ١٧١٢].

٣/ عِيانًا: تَسخُّطًا.

٤/ مِرَّةً: قوَّةً.

[ولا تطلبوا ثوابَ الآخرةِ فِي الدُّنيا، ولا ثوابَ الدُّنيا في الآخرةِ][1]. لأنَّ مَنْ طلبَ مِنْ ماعندَ اللهِ وَجَدَ ما طلبَ، ولكن لا يجتمعُ عطاءٌ ومُعْطٍ في مِنْزِلٍ واحدٍ، فاخلوا القلبَ – بَنِيَّ – للرَّبِّ، ودَعُوا ما سِواهُ. فما ضَرَّ شيئٌ فاتَ إلاَّهو. واطْلُبُوا وجهَ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ، يَخْلُو لَكُم وجْهُهُ، ولا تَحْتَجِبُوا عَنِ اللهِ بكُلِّ عَطاءٍ مهما عَظُمَ، لأنَّ الحَقَّ والخيْرَ والحَيَاةَ فِي اللهِ أعظم.

اكتهلوا بَنيَّ في شبابكم

اكْتَهِلواُ ـ بَنِيَّ ـ فِي شَبَابِكُمْ ولْيَكُنْ مِلْءُ أبْرادِكُم حَزْمًا وعفَافًا ونائلاً؛ وريّضوا ـ بَنِيَّ ـ عُقُولَكُمْ عَلَى الشَّجاعةِ فِي اقتحام دقائقِ الفِكرِ للخروج بالعِبَرِ، لأنَّ جُبْنَ العقولِ يورثُ الإنسانَ الجَهلَ، ويُضيّقُ عليهِ الآفاقَ، ويَسُدُّ عليهِ مِنْافِذَ الحَقّ التَّى تُدخِلُ أشعةَ السَّعادةِ ونسِيمَ الحَيَاةِ في ميّتِ القلوبِ، ولا تَحْجمُنَّ ـ بَنِيَّ ـ عَن قول الحقّ الموزونِ بالعَقْلِ. بَلْ عَلَيْكُمْ أنْ تكْتَهِلوا في شبابكم عَزْمًا وحَزْمًا وعقلاً وأناةً ورويَّةً. ولَنْ يُعَابَ شبابٌ بالعقلِ، فلا تُصَغِّرُنَّ أنفُسَكُمْ عَن طِلابِ المجْدِ بطلبِ المعرَفَةِ، ولاَتعْلوا بهِا عَن اهْتِبَالِ الفُرَصِ للعِلم بما جَهِلْتُمْ، فإنَّ الَكَاذِبَ ـ بَنِيَّ ـ مَنْ ادَّعَى الإحاطةَ بالعِلْم. وَلْتعلَمُوا ـ بَنِيَّ ـ أنَّ طالبَ العِلْم لا يشْبَعُ. ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2] فأَكثِروُا ـ بَنِيَّ ـ مشاورَةَ أهلِ

١/ لا تطلبوا ثواب...الخ: هذه العبارة تدعو أن لا يطلبَ المؤمنُ في الدنيا ما وعدَه الله به مِنْ ثوابٍ على الأعمال الصالحات في الآخرة، وأن يتجرَّدَ في عبادته لله عن طلبِ الأعواضِ. وأن يرفع هِمَّتَه عن مصاحبة الكونين–كما سيأتي بيانُه لاحقًا– و أنْ لا يرضَى بغير الله بديلاً، لأنه لا يجتمع عطاءٌ ومُعطي في منزلٍ واحد.

٢/ الإسراء: ٨٥.

الورع والدِّينِ والفِقْهِ. وَخُذُوا عَنْ أهلِ التجاريبِ ذوي الأَسْنَانِ[1] والبَصَرِ والرأي والعقلِ والحِكْمَةِ مايُصْلِحُكُمْ.

واجْتَنبوا - بَنِيَّ - مَشْوَرَةَ أهلِ الدِقَّةِ[2] فِي الدِّينِ والرِّقَّةِ فِي الإيمانِ، والكَزَازةِ[3] فِي القلبِ واليَدين، لأَنَّ دقيقَ الدِّين، رقيقَ الإِيمانِ، لا يتحرَّزُ مِن الاقتحام فِي محارم اللهِ، ولا يَتورَّعُ عَن سَيِّئِ الابْتِداع، أمَّا أهْلُ الكَزَازةِ فِي القلبِ واليدين فهم أهلُ الشُّحّ والحرصِ، فلا تُدْنُوهُم مِنْكُمْ. واعْلَمُوا أنَّ الإنسانَ متى ما كانَ شحيحًا حريصًا علَى مافى يَدَيْهِ، كَانَ كثيرَ الأخذِ قليلَ العطاءِ، ومِنْ كانَ كذلِكَ اضطربَ أمرُهُ، ولَمْ يَسْتقِمْ لَهُ إلاَّ قليلاً. فأحْسِنُوا إِلَى النَّاسِ تستعبِدوا قُلُوبَهُم:

وَلَمْ أرَ كالمعروفِ أمَّا مَذَاقُهُ فحُلْوٌ وأمَّا وَجْهُهُ فجَميلُ[4]

فالمُحْسِنُ – بَنِيَّ – حبيبُ الرَّحمنِ و ﴿ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ ﴾[5] شريطةَ أنْ يَروا وجهَ اللهِ في إحسانهم. و﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦ ﴾[6] ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ

١/ **ذوي الأسنان:** كبار السنّ، والأسنان: جمع سِنٍّ، وهي الجارحة المعلومة، واستُعيرتْ للعمر استدلالاً بها على طوله.

٢/ **الدقة:** بمعنَى الضعف.

٣/ **الكزازة:** القبض والجفاف يعني به الجفاء والبخل.

٤/ البيت لهذيل بن ميسرة الفزاري. انظر: [ديوان الحماسة، ج: ٢ ص: ٤٠] والبيان والتبيين، ج: ١ ص: ٥٠٣].و[المستطرف، ج: ١ ص: ٧٨].

٥/ التوبة:٩١.

٦/ الأعراف:٥٦.

وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ [1] ﴿ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ [2]

فَتَحَرّوا الأخيارَ –بَنِيَّ– فِي الاستشارةِ، واستعينوا بذوي المُروءَةِ والشَّرفِ والأخلاقِ الرفيعةِ فِي كُلِّ عَمَلٍ تُريدُونَ فِيهِ العَوْنَ، واحْرِصُوا –بَنِيَّ– أنْ ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ [3] ولتعلموا – بَنِيَّ– أنَّ الشُّحَّ [4] أَوَّلُ ماعَصَى بهِ الإنسانُ ربَّهُ– فقُوا أنْفُسَكُمْ وأهليكُمْ ناراً وقُودُها النَّاسُ والحجارةُ. واتقُوا النَّارَ– بَنِيَّ– ولو بِشِقّ تمرةٍ، ولا تحْقِرُنَّ مِن المعروفِ شيئًا، ولو أنْ تلقَى أخاكَ بوجهٍ طلْقٍ. والشُّحُّ خِزْيٌ، والبُخْلُ عائِقٌ عَن المَكْرُمَاتِ، والحِرْصُ مَطِيَّةُ الخِذْلان. ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [5]

واحْرِصُوا– بَنِيَّ– عَلَى الكَسبِ الحَلاَلِ، فإنَّ الكَسْبَ الحَلالَ يَضْمَنُ لِصَاحِبهِ الإنْفَاقَ في الحلاَلِ؛ فَتجنَّبُوا – بَنِيَّ– الخَبِيثَ فإنَّهُ نازِعٌ إلى الخبيثِ وإنْ قَرَّ حينًا، وتوخُّوا الطيّبَ في كُلِّ رزقٍ، وعَمَلٍ وقولٍ، وصِهْرٍ وخَتَنٍ، لأنَّ الطَّيّبَ يدعو إلى الطَّيّبِ، ولْتَعْلَمُوا أنَّ الله طيّبٌ

١/ البقرة: ٢١٥.

٢/ البقرة: ٢٧١.

٣/ آل عمران: ١ ١٨.

٤/ الشحُّ: البخل والحرص، –وكونه أول معصية للإنسان ظاهرٌ من قصة [قابيل وهابيل] ابْنَيْ سيدنا آدم عليه السلام.

٥/ الحشر: ٩، التغابن: ١٦.

ولا يَقْبَلُ إلا الطَّيِّبَ. ومتى أَدْخَلَ الإنسانُ حرامًا في جوفهِ، كانَ ذلكَ حِجابًا دُونَ سَمَاعِ دعوتهِ. فأحِلُّوا – بَنِيَّ – مَطْعَمَكمْ ومَشْرَبَكُمْ تُسْتَجَابُ دَعْوتُكمْ. واحذروا الإنفاقَ في الهَوى فإنَّه حِجابٌ دونَ الهُدَى.

الشيطانُ عدوٌّ فاتَّخذوه عدوًّا

واعْلَمُوا – بَنِيَّ – أنَّ الشيطانَ عدوُّ اللهِ وعدوُّكُمْ فاتَّخِذُوهُ عَدوًّا، ولاتَرْكَنَوا لَهُ يَوْمًا، ولا تَفْتُرُوا عَنْ حربهِ سَاعَةً، فإنَّهُ عَنيدٌ مَرِيدٌ خفِيٌّ دَقيقٌ يَجْرِي في الإنسانِ مَجْرَى الدَّم، فإنْ نَفَخَ فِي مَعاطِسِكُمْ[1] فاذْكُروا اللهَ، وذَلُّوا له، ولا يُحَسِّنَنَّ لَكُمُ الشَّيطانُ سُوءَ أعمالِكُم، بَلْ اذكُرُوا اللهَ كثيرًا تأمَنوا لَمَّةَ الشَّيْطانِ. وتواضعُوا للهِ بين عِبَادِهِ، ولا تُصعِّرُوا خُدودَكُمْ للبشرِ، ولا تَحمِلُوا أنفُسَكُمْ علَى ظهورِ النَّاسِ، فتَحْمِلُوا يومَ القيامةِ أوزارًا مع أوزاركُمْ. وانظُروا للنَّاسِ – بَنِيَّ – بالعينِ التي تُحِبُّونَ أن ينظروا بها إليْكُم، ومَنْ يُهِن نفْسَهُ فلنْ يَجِدَ لها مُكْرِمًا، ومِنْ يُهِن النَّاسَ كانَ عَند النَّاسِ أهْون ممَّا هُمْ عَنْدُه. {وكَمَا تُدِين تُدَان}[2].

فتقبَّلْوُا – بَنِيَّ – عبادَ الله علَى عِلاَّتِهم ولا تُكلِّفوهم مالَمْ يَعْتَادوا، وإنْ كَلَّفتموهم فأعينوهم. وإنْ دخلوا عليكم في هيئةٍ لا ترضونها لأنفسكم،

---

[1]/ **نفخ في معاطسكم:** المعاطس: الأنوف، واحدها: مَعْطَسٌ. والنَّفخ هنا كناية عن محاولات الشيطان لإغواء الإنسان.

[2]/ أخرجه عبد الرازق عن معمر عن أيوب عن أبي قِلابة الجَرْمي عن النبي ﷺ قال: {البِرُّ لا يبلَى والإثم لا يُنسَى والديَّان لا يموت، فكنْ كما شئتَ، كما تُدِينُ تُدَانُ }. [الجامع لمعمر بن راشد، ج: ١١ ص: ١٧٨]. ونظر: [الزهد الكبير للبيهقي، ج: ٢ ص: ٢٧٧]. وقال الحافظ: وهو مرسل رجاله ثقات. [فتح الباري، ج: ٨ ص: ١٥٦].

ولايرضاها لكم أحبابكُم فلا تُعيروها التفاتًا. وإنْ أبدىَ بعضُ الدَّاخلين جهلاً فلْيسعهُ حِلمكم، وإنْ غُلِبَ علَى هُجْرِ القولِ فلا تُغْلَبُوا علَى حُسْنِ الصَّمتِ، فإنَّ النَّدمَ علَى الصمت في غير حقّ الله أكرمُ وأحسنُ عاقبةً مِنْ الكلام.

النَّاسُ أبناءُ بيئاتهم

واعْلمُوا– بَنِيَّ– أنَّ النَاسَ أبناءُ بيئَاتهم، ونسيجُ أنوالِ زمانهم فأصْلِحُوا النَّوْلَ– بَنِيَّ– تُجيدوا عليهِ النَّسجَ. ولا تُمَكِّنوا ظاهرَ المُريدِ مِنْ باطنهِ، ولا تُحكِّموا المَظهرَ فِي المَخبرِ، ولا تُجيفُوا[١] فِيكُمْ أبوابَ الاحترام والعِنَايةِ لِمَنْ رَثَّ مَظهَرُه، أو بَذُءَ مَنْطِقُهُ، أو غُشِيَ عَقْلُهُ ببعضِ ماهو عليه، ولْيكُنْ نَظرُكمْ لما فيهِ لا إلى ما عليه، أو ما يأتيهِ، فإنَّ المَخْبَرَ قَدْ يَكْذِبُ الخَبرَ كثيرًا.

واعملوا – بَنِيَّ– علَى بلوغ درجةٍ ومقام يرحمُ الله فيه – بِكُمْ – مَنْ ظَلَمَكُمْ، وَلَنْ تَبْلغوهُ – بَنِيَّ – إلاَّ بِسَعَةِ المعرفَةِ الواسلَةِ إلى الرَّضا بالحَقّ وعَنْهُ، ويومَ يرضَى أحدُكم – بَنِيَّ– عَن الحَقّ يكنْ بهِ مع الخَلْقِ، ومَنْ كَانَ بالحَقّ مع الخَلْق أمِنُوا جَنْبَهُ، وانتظروا سَيْبَهُ[٢]، لأنَّ الحَقَّ بيدِه الخيْر.

فكونوا – بَنِيَّ – أداةَ خيْرِ ودُعاةَ خيْرِ ومعالمَ خيْر . ترْفِدونَ أحسنَ الرّفِدِ[٣] ويُسْتَرْشَدُ بكُمْ أهْدىَ الرُّشدِ عَلَى طريقِ الحَقّ في غير امتنانِ . تبلغوا مَراتبَ الصِّدّيقينَ مِنْ أهلِ الجِنان. واعْلمُوا – بَنِيَّ– أنَّ مَنْ لم

١/ تُجيفوا: تسدُّوا.

٢/ سيبه: عَطاءَه.

٣/ **الرِّفد**: العطاء والصلة، وترفدون: تعطون وتعينون.

يُقِمْ قِيَامَهُ بالحَقّ، لم ينتفعْ أحدٌ جلسَ إليهِ مِن الخلقِ، ومَن طوَى قلبَهُ علَى أحرّ الرَّسيسِ١ كَانَ لكلامه فِي قلوبِ عبادِ اللهِ مسيس٢.

وأوصِيكُمْ - بَنِيَّ- وصاةَ مَنْ عايَنَ الحَقَّ وخَبِرَ الأمرَ أنْ تُكْرِموا أحبابَكم، وترعوا مُريدِيكم علَى البُعدِ والقُرْبِ، وأن تسيروا فيهم سِيرةَ الحَقِّ الممهودِ، وجنِّبوهم- بَنِيَّ- مَزالَّ الفتنِ ومَداحِضَ الاختبارِ، ومُرُوهمْ ألاَّ يختبروا[٣] الحَقَّ، فإنَّه مِنْ فِعْلِ عديمي الخَلاقِ٤، وليجدوا فِيكُمْ - بَنِيَّ- السَّعَةَ دائمًا ببسطِ الوجهِ وحُسْنِ الخُلُقِ.

١/ **الرسيس:** الغيظ والغضب.

٢/ **مسيس:** تأثير. وهذه الجزئيَّة مِن الوصيَّة تدعو إلى أن يستشعر العبدُ على الدَّوام قيُّوميَّةَ الله عليه، وإحاطتَه به وبكلِّ شيئ في الوجود، ومتى تحقَّق العبدُ بذلك صار مصدرَ خيرٍ وأثرٍ طيِّبٍ ظاهرٍ فيما حوله.

٣/ اختبارُ الحق: هو إلحاحُ العبدِ وتمسُّكُه بعين ما طلبه مِن ربِّه في دعائه أو سؤالِه لشيخه ليقضي الله له حاجةً من الحوائج بعينها، دون إجمالٍ في الطلبِ، ودون تفويض الأمرِ في ذلك لله العليم الحكيم الخبير، وهذا الفعلُ مِنْ قبيل استبدالِ الذي هو أدنَى بالذي هو خير، وفي ذلك من الجهلِ والحِرمان ما لا يخفَى، لأنَّ الخيرَ فيما اختارَهُ الله، ولا يكون أصلاً إلا ما أراده الحقُّ سبحانه في سابق علمه جلَّ عُلاه، ولا يريد الله بالمؤمنِ إلا خيرًا كما جاء في حديث النبي ﷺ. وما أحسن ما قاله الشيخ عبدالعزيزالمهدوي: "من لم يكن في دعائه تاركًا لاختياره راضيًا باختيار الحقِّ تعالى له فهو مستدرج، ممن قيل له -اقضوا حاجته فإني أكره أن أسمع صوته-؛ فإن كان مع اختيار الحق تعالى لا مع اختياره لنفسه فهو مُجابٌ وإنْ لم يُعْطَ! فالأمور بخواتيمها".

٤/ **الخَلاق:** الحظُّ والنَّصيبُ.

واحرصُوا ألاَّ ينامَ أيٌّ مَنْ ضَافَكم علَى طَوًى[1]. وأحسنوا لِكُلَّ مَنْ ظنَّ الخيْرَ بالطَّلبِ، فإنَّهُ شاهدٌ فَلْتَكُنْ شهادةَ حقّ وفى سبيلِ الحَقّ ولا تردُّوهَا بإشراك.

اللهَ اللهَ بَنِيَّ في أرحامِكم

واللهَ اللهَ[2]– بَنِيَّ– فِي أعمَامِكمُ وعمَّاتِكُم وأخوالكُم وخالاتكم وبناتِ الأخ وبناتِ الأختِ والعافينَ مِنْ ذوي القُرْبَى، فإنَّهُم عَهْدِي لكم فلا تضيّعوهُ. وقِّروا كِبَارَهم وارحموا صغارَهم، فإنَّه ليسَ هناكَ فضلٌ لكم عليهِم، بَلْ هم الذين فضَّلوكم وَقَدَّموكم، وأوطأُوا أقْدَامَكم أعتابَ آبائِهم وأبائِكم، وبَلَّغوكم حاجَتَكم في التَّأسِّي بالآباءِ بما أردتم، وأعانوكم بالحَزْم علَى ماطلبتم، فأطْلِبوهم – بَنِيَّ– إذا طلبوا، وأعطوهم إنْ سأَلوا، وابتدِروهم إنْ لم يسأَلوا، ولْيَكُن كُلُّ مِنْكم –بَنِيَّ– لبيبًا يفهمُ بالإشارةِ التي تُغنيهِ عَن العِبارةِ. واحتملوا جفوتهم، وَتَذرَّعُوا بالصَّبْرِ إن احتدُّوا معكم، صِلوهم إنْ قطعوكم، احلموا عنهم إنْ جَهِلوا، تُرْضُوهم بما رَزقكم الله إنْ غضبوا.

فإنَّ الإنسانَ – بَنِيَّ– لَيَبلغ بالحلم والصَّبرِ وطُولِ الأناةِ، ما لا يبلغهُ بالقَسْوةِ والجَزَع والنَّزقِ[3] والعَجَلةِ؛ ولا تقفلوا باباً مِنْ دونهم إلا حين عَوْرَاتكم الثَّلاث، فإنَّه يَحِقُّ لكم أَنْ تعملوا بما أمرَ الحَقُّ، كما يَجبُ عليهِم أنْ يلتزمُوا أمرَ اللهِ ولايأْتوا لكم قبلَ صلاةِ الفجْرِ إلا لضرورةٍ،

١/ **على طَوًى**: الطَّوى: الجوع. قال الثعالبي في فقه اللغة: أوَّلُ مَرَاتِبِ الحَاجَةِ إلى الطَّعَام الجُوعُ، ثُمَّ السَّغَبُ، ثُمَّ الغَرَثُ، ثمَّ الطَّوَى، ثُمَّ المَخْمَصَةُ، ثُمَّ الضَّرَمُ، ثُمَّ السُّعَار.

٢/ اللهَ اللهَ: بمعنى أُذَكِّرُكُم اللهَ.

٣/ النَّزق:الضيق والاغترار وعدم التجربة.

ولا حينَ تضعونَ ثيابَكم مِن الظَّهيرةِ، ولا مِن بعد صلاةِ العشاءِ، فهذه ثلاثُ عوراتٍ لكم، طَوَّافُونَ بعدَهَا عليكم، ولكن اخرجُوا إليهم فيها إنْ كانتْ الضَّرورةُ مُلِحَّةً والحاجةُ ماسَّةً، لأَنَّ فَوْتَ الحاجةِ لمِنْ طَلَبَها عَن وقتِها تِرَةٌ[1]. وليسعْكُم – بَنِيَّ – في معاملةِ العُفاةِ قولُ الشَّاعِر.

تــراه إذا مــا جِئْتَــهُ مُــتَهلّلاً   كأنَّك تُعْطيه الذي أنْتَ سائلُه[2]

واعملوا – بَنِيَّ – بما أوصَى "أخو بَنِي صفرة" في قوله: [إني أُحِبُّ للرَّجلِ مِنْكُم أنْ يَكُون لفِعْلهِ الفضلُ علَى لِسانهِ، وأكْرَهُ للرَّجلِ مِنْكُم أَنْ يَكُونَ لِلسانهِ الفضلُ علَى فِعْلهِ]. ولا يُمْسِكَنَّ أَحدٌ مِنْكم – بَنِيَّ – فضلَ مالهِ ولا ثيابهِ، ولا ظهرهِ، فإِنَّ العَوْدَ بهِ علَى المحتاجينَ أَحْمَدُ. ولْتَعلَمُوا – بَنِيَّ – أَنَّ ثيابَكم علَى غيركم أجمل مِنْها عَلَيْكُمْ، ورِفْدكم سِواكم أبقَى مِنْهُ عندكم. واعْلَمُوا أَنَّه ليس لكم مِنْ حُطام الدُّنيا إلا ما أكَلْتُم فأفنيتُم أو تصدَّقتم بهِ فأبَقيْتُم[3].

١/ ترة:التِّرة: النَّقْص، وقيل التَّبِعَةُ. وفي الحديث: {مَن جلس مجْلسًا لم يذْكر الله فيه كان عليه تِرَةً}.

٢/ البيت لزهير بن أبي سلمَى من قصيدة يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر. انظر: [خزانة الأدب، ج: ١ ص: ٤٢٣]. و[المستطرف، ج: ٢ ص: ٣٦٨]. و[جمهرة الأمثال، ج: ١ ص: ١٠٢].

٣/ أخرج مسلم والترمذي . واللفظ له . عَن مُطَرّفِ بنِ عبْدِ الله بنِ الشّخّيرِ عَن أَبيهِ أَنّهُ انْتَهى إلى النبيّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ {أَلْهَاكُمُ التّكَاثُرُ} قالَ {يقولُ ابنُ آدَمَ مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إلاّ ما تَصَدّقْتَ فأمْضَيْتَ أَوْ أَكَلْتَ فأفْنَيْتَ أَو لَبست فأبْلَيْتَ}. [صحيح مسلم، ج: ٤ ص: ٢٢٧٣]. و[سنن الترمذي، ج: ٤ ص: ٥٧٢]. وأخرجه مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه بلفظ: {يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي، مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلاَثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى،

علماء الجَنَّة

والزموا– بَنِيَّ– الحزْمَ والعقلَ مهما تقلَّبَتْ بِكُمُ الأَيَّامُ، ولْيَكُنْ كِتَابُ اللهِ وسُنَّةُ رَسولِهِ هُدًى ونُوراً لَكُم فِي كلِّ طريقِ تسلُكُونَ، مُبتَغِينَ بهِ وجْهَ اللهِ ورضاءَه، فَهُمَا العُرْوَةُ الوثقَى والسِّراطُ المستقيم، والحَقُّ الذي لا يأْتيهِ الباطلُ مِنْ بين يديْهِ ولا مِنْ خلفهِ، تنزيلٌ مِنْ حكِيم حميد. فالزموهُمَا – بَنِيَّ– تَفَقُّهًا فيهما، وعَمَلاً بما فَقِهْتُمْ تكُونُوا مِنْ عُلماءِ الجنَّةِ.!! وتَحَرَّوْا – بَنِيَّ– الطَّاعات ولازِمُوا الجماعات، فإنَّهُ {لا صلاةَ لِجارِ المسجدِ إلاَّ في المسجدِ}[1]، ومايعمرُ مساجِدَ اللهِ إلاَّ من آمن بالله.

وَتَواصَوْا– بَنِيَّ– وأهْليكم بالحَقّ، وتَهادوا إِلى الخيْرِ، وتعاونوا علَى البِرّ والتَّقْوَى، وصِلُوا بعضكم بعضًا، وتعاطفوا فيما بينكم فإنَّ ذلكَ يُنمِّي المودَّةَ ويُثَبّتُ أصولَهَا، وتهادوا – بَنِيَّ– فيما بينَكُم فإنَّ الهدِيَّةَ توجِبُ المحبَّةَ، وَتَعَاهدُوا – بَنِيَّ– العائلينَ والبائسينَ المعترّينَ[2] مِنْ جيرانِكم، لأنَّ للجارِ حَقٌّ أوجَبهُ الله وصيَّةً لرَسوله ﷺ وقد قال الرسول ﷺ فيما روَى جابر بن عبد الله: {ما زالَ جبريل يُوصيني بالجار حَتَّى

أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ}. [صحيح مسلم، ج: ٤ ص: ٢٢٧٣].

١/ أخرجه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه والدارقطني من حديث جابر رضي الله عنه [المستدرك، ج: ١ ص: ٣٧٣]. و[سنن الدارقطني، ج: ١ ص: ٤١٩].

٢/ المعترّين: المتعرّضين للسؤال. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ ﴾ آية "٣٦" من سورة الحج.

ظننت أنَّه سيورِّثهُ}[1]. وهذا كلُّه تأكيدٌ لِحَقِ الجِوَار فارعوا حَقَّهُ – بَنِيَّ– ، واعلموا فوقَ ذلك أنَّ الجارَ شاهدٌ يومَ القِيامةِ فأَشهِدُوهم مِنْ أنفُسِكمْ خيْرًا.

واصبروا للحقوقِ وإنْ استغرقتْ كُلَّ الفضْلِ فإنَّه أرْجَى عاقبةً وأسْنَى ذِكْراً.

واعرفوا – بَنِيَّ– لذوي الأسنانِ مِن قرابتكم فضلَهُم، وَقَدِّموهُم إنْ كَانَ ثَمَّةَ موقفٍ، فإنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ يهِمُّ إعطاءَ السِّواكِ لِأحدِ شبابِ الإسلام، فجَاءَ هُ الأمرُ مِن الحَقِ تَعَالَى بأنْ "كَبِّرْ".

ولتعلموا – بَنِيَّ– أن للشَّيبةِ في الإسلام حُرمةً بَلْغت مِنْ الأهميَّةِ والحِرزِ مقامًا يَقُول فيهِ الحَقُّ تَعَالَى في حديثٍ قُدُسَى: {إنِّي لأسْتَحِي أَنْ أُعذِّب ذا الشَّيبةِ مِنْ عبادي يومَ القيامةِ..}[2]. أو كَمَا جَاءَ فِي

---

[1]/ روى البزار عن جابر رضي الله عنه قال: جاء رجل ورسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام يصليان حيث يصلى على الجنائز، فقال الرجل: يا رسول الله، من هذا الرجل الذي رأيته معك؟ قال: {وهل رأيته؟}. قال: نعم. قال: {لقد رأيت خيراً كثيراً هذا جبريل مازال يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه}. وقال الهيثمي: رواه البزار، وفيه الفضل بن مبشر، وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات. [مجمع الزوائد، ج: ٨ ص: ٣٠٢].

والحديث . بدون قصة صلاة جبريل وسؤال الرجل . أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما. كما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنَّسائي والترمذي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها.

٢/ رواه أبو يعلى في مسنده والبيهقي في كتاب الزهد الكبير عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله تبارك وتعالى {إني لأستحي من عبدي وأَمَتي يشيبان في الإسلام فتشيب لحيةُ عبدي ورأسُ أَمَتي في الإسلام أعذبهما في النار بعد ذلك}. هذا لفظ أبي

الأثر. وحَرِيٌّ بعبادِ اللهِ أَنْ يستَحُوا مِن التَّعرُّضِ لمِنْ يَسْتَحِي الحَقُّ مِن تعذِيبهِ يوَم القيامةِ لا لشيئ إلاَّ لِشَيْبَتهِ.

ليكن القرآنُ مفتاحَ يومكم

ولْيكُنْ القرآنُ – بَنِيَّ– مِفتاحًا لِكُلِّ يوم مِنْ أيَّامِكُم، وليكنْ أوَّلَ ماتَبدأونَ بهِ إذا أصبحتُم، فإنَّه صباحُ خيْرٍ وبركةٍ ونورٍ؛ وهو إلى جانبِ ذلكَ حَبْلُ الله المتين الذي لا تنفصمُ عُرَاهُ دونَ بلوغ الحقّ، فتمسَّكوا بهِ تأدُّبًا بآدابهِ، وتَخلُّقًا بأخلاقهِ تأويلاً لمراميهِ، وتَحرّيًا لِمَراضِيهِ، وتأسُّوا فيما تأتونَ مِن الأعمالِ بآدابِ الصَّالِحينَ مِن آبائِكُم مِن سَلفِكُمْ.

واحرِصوا – بَنِيَّ– أنْ تكونوا علَى أثَرِي، فإنِّي ـ والذي نفسي بيده ـ قَدْ سَلَكْتُ بكُم الطَّريقَ الوسطَى، ومَهَّدتُّ لكم خيرَ المِهَاد الذي أَجِدُ عاقِبَتَهُ الآن بَرْدًا وسلامًا في مقام مِن مَقاماتِ الحقّ يَرْتَدُّ عنه طَرْفُ كِبَارِ أهلِ الولايةِ حاسِرًا، والحمدُ لله ولا فخرَ. ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1]

فاجتهِدُوا – بَنِيَّ– في العَمَلِ الصَّالِح. وأُوصِي المُقدَّمَ في حياتي مِنْكُم، وصاةَ مَنْ شَهِدَ الأعيانَ علَى ماهيَ عليه، أنْ يقُمِ اللَّيلَ إلا قليلاً نِصْفَهُ أوْ لِيَنْقُصْ مِنْهُ قليلاً أو فليزِدْ عليهِ ولْيُرَتِّلِ القرآنَ ترتيلاً. لأَنَّ الرُّخصَ – بُنَيَّ– عزائمٌ في حَقِّ مَنْ تَجَرَّدَ لِلحَقِّ. ثم مامصيرُ الغنمِ إنْ

يعلى، وزاد البيهقي: قال فرأيت رسول الله ﷺ يبكي، فقيل يا رسول الله ما يبكيك؟، فقال {أبكي ممن يستحي الله منه ولا يستحي من الله}. [مسند أبي يعلى ج: ٥ ص: ١٥٣] و[كتاب الزهد الكبير للبيهقي ج: ٢ ص: ٢٤٢].

[1] / الضُّحى: ١١.

نـامَ الرَّاعِـي والـذِّئبُ مُترَصِّـدٌ!؟ أَمْ تَحْسَـبُ أنَّ دَارَ كرامـةِ اللهِ مِـن الهـوانِ بِحيثُ يعطِيها النِّيام؟!! لا- بُنَـيَّ- إنَّ سِـتَّ ساعاتٍ مِن اللَّيْلِ كافيـةٌ لِيَأْخُـذَ الجسـمُ حَقَّـه، ليعطِـى الحَـقَّ والـرُّوحَ حقَّهُمـا، وهمـا لا ينامـان وراحَتُهما الـذِّكْرُ والحُضـورُ مـع اللهِ. فلتذهبْ بَقِيَّةُ اللَّيلِ إيفَاءً للحقوقِ العُلْيَا فإنَّها أَخْلَدُ وأبْقَى. فلا تَرْكَنُوا - بَنِيَّ- للنَّوْم في أيَّامِكم فإنَّ النَّوْمَ للمشتاقِ بَدْءُ جَفَاء.

واحـرْصِ - بُنَـيَّ - عَلَـى أن يُفْـتَحَ بابُـكَ قبـل طلـوع الشَّـمس وعنـد الإسفارِ الواضح فإنَّ الرَّحمةَ والرِّزقَ يُقَسَّم ساعتَهَا، وَقَدْ يَكُونُ مـع أوَّلِ داخـلٍ عليـكَ مُحتاجًـا أومُوَدِّعًـا، فـاحرصْ أنْ تكـونَ كَمَـا كُنْـتُ، لأَنَّ المحتـاجَ يسـتطعِمُ لـه الحَـقُّ، ومَن أطعـمَ الحَـقَّ فـي أولَ يومِـه، أطْعمَـهُ الحَـقُّ بَقِيَّـةَ يومِـه. والمودَّعُ فـي رعايـةِ الله وحِفْظِـه، ومَـنْ ودَّعَ المـودَّعَ ودعا له بخيْرٍ كَانَ مَعهُ في الرِّعايةِ والحِفْظِ مِن الله.

مُلْكُ البقاءِ بالله

وأدعـوكم- بَنِـيَّ - إلـى رَفْـع الهِمَم بـأَنْ تُحَـاوِلوا المُلـكَ بالبقـاءِ بـالله، فإنَّ مَن بَقِيَ بالله كان داعِيًا إليـه علَـى بَصيرةٍ، ومَـن دعـا إلـى الله علَـى بصـيرةٍ كـان مِـن أولـي الأمْـرِ، ومَـن كـان مِـن أُولـي الأمـرِ لـم يعصِـه كـائنٌ، لأَنَّ أمرَه مِن أمـرِ اللهِ، ومَـن عـلا أمْرُهُ كـان هـو المَلِـكُ والإمـامُ، فإنْ بَلَغْتُمْ ذلك - بَنِيَّ- ولا أَشُكُّ فيـه لأنـي قَدْ وُعِدْتُـهُ- فهُـو مـا آمُـلُ، ولن تبْلُغُوهُ - بَنِيَّ- إلاَّ علَـى نجائـبِ الهِمَمِ العالياتِ، التـي استشعرتْ[١] الفرائضَ، وتَدَثَّرتِ النَّوافِلَ، وطـارتْ بِكِلَيْهمـا استقلالاً وشـوقًا لله وحُبِّـهِ.

١/ استشعرَتْ: من الشعار وهو الملابس اللصيقة بالجسد.

فاعملوا علَى ذلك – بَنِيَّ – فهو قريبٌ إنْ شاءَ الله، وإنْ قَصُرَتْ بكُمْ الآجالُ دونَ بُلُوغ الآمالِ، فلا أقلَّ مِنْ أنْ تُعذَروا بالمَوْتِ!.

فلا يَعجزَنَّ أحدُكُمْ– بَنِيَّ– أنْ يموتَ في الله إنْ لمْ يُدْرِكْ القِيامَ به؛ لأَنَّ في المَوْت في اللهِ شهادة فِي سبيلِ اللهِ، وفي الشَّهادةِ قربٌ، وفِى القُربِ أُنسٌ، وفِى الأُنسِ رضًى، وفي الرِّضَى إكرامٌ، وفي الإكرام مقامٌ، وفي المقام مكَانَةٌ، والمكَانَةُ مَقْعدُ الصِّدقِ عند المليكِ المُقْتَدِرِ، لِلذين أنْعَمَ الله عليهم مِن النَّبيينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالِحينَ وحَسُنَ أُولئك رَفِيقًا. فهل تَرَوْنَ المَوْتَ في اللهِ، أقلَّ مكَانَةً مِن البقاءِ به؟!. قديمًا – بنيَّ – قَالَ امرؤ القيس بن حُجْرِ الكِنْدي[1]:

بكَى صاحبي لَمَّا رأَى الدَّرْبَ دُوَنهُ وأيْقَنَ أنَّا لاحِقانِ بقيصَرا

فقلتُ له لاُ تُبْكِ عيْنَيْكَ إنَّما تُحَاوِلُ مُلْكًا أو تمُوتَ فَتُعْذَرا

وأنا أقولُ بَعْدُ لِصاحبي وبَنِيَّ: " لاتُبْكِ عينيكَ إنَّما تحاولُ مُلكًا في البقاءِ بالله أو تموتَ بالفناءِ فيه فتُعْذَرا"، وإن بَعُدَتْ المكَانَةُ وارتفعَ المقامُ بين ما أرَجِّيهِ مِنْ مُلْكٍ، وما يُرَجِّيهِ امرؤ القيس. وإنْ كانَ مَوْتُ

١/ امرؤ القيس: جندح بن حُجْر بن الحارث الكِندي، وكان آباؤه من أشراف كِنْدَة وملوكها، وكان آخرهم حُجْر والد امرئ القيس، سلك امرؤ القيس مسلك المترفين من أولاد الملوك، يلهو ويلعب ويعاقر الخمر ويغازل الحِسَان، فمقته أبوه وطرده عنه وأقصاه، ولما ثار بنو أسد على أبيه وقتلوه أخذ امرؤ القيس يجمع العُدة ويشحذ القبائل في إدراك الثأر، فنازل بني أسد وقتل فيهم كثيرًا ثم اشتدتْ به علة قروح فمات منها ودفن بأنقره، وكان ذلك قبل الهجرة بقريب من قرن، وهو صاحب إحدى المعلقات وهي أفخرهن وأشهرهن أولها:

قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ ✷ بِسِقطِ اللوى بينَ الدَّخولِ فَحَوْمَلِ

[البداية والنهاية لابن كثير، ج: ٢ ص: ٢٨٠]. و[جواهر الأدب للهاشمي، ج: ٢ ص: ٣٠].

امرئ القيسِ الذي عَنَاهُ فناءً وضلالاً في الأرضِ! فإنَّهُ عِندي انتقَالٌ إلى جَنابِ الحَقّ وجَنَّةِ القُرْبِ. وأيْقِنوُا –أبنائي– أَنَّهُ لنْ يلحقَ أحدَكم "قيصرُ الشَّهواتِ"١ فيهِ ما جعلَ العقلَ والرُّوحَ إمامًا والقرآنَ والسُّنةَ هادِيًا ودليلاً.

واعلموا – بَنِيَّ– أنَّ اللهَ قَدْ عرضَ الأمانةَ علَى السَّماواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أنْ يحملْنها وأشْفَقْنَ مِنْها وحمَلَها الإنسانُ؟! فوصفهُ الحَقُّ بأنَّهُ ظَلُومٌ جَهُولٌ. فلا تَظْلِموُا – بَنِيَّ– أنفُسَكُمْ بتحميلها ما لا تُطِيقُ، ولاتَجْهَلُوا قَدْرَكُمْ فُيفْضِي بكم إلى جهلِ قَدْرِ الحَقّ. ولتعلموا – بَنِيَّ– أنَّ لَكُلِّ عبدٍ مِن عِبَادِ اللهِ أمانةٌ مِن الله، تَتمثَّلُ في كُلِّ صِفَةٍ مِن صفاتِ الحَقّ يَخلَعُها الحَقُّ علَى ذلكَ العَبْد، وكلَّما تَعدَّدتْ صِفاتُ الحَقّ في أَحَدٍ مِن عبادِ اللهِ دَلَّ ذلك علَى مِقْدَارِ أمانته عند اللهِ. ولكن مَنْ يَقْوَى مِنْ عبادِ اللهِ علَى حَمْلِ أمانةِ الله، وهو مُرَكَّبٌ غيرُ معصوم، يَعْتَرِيهِ ضَعْفُ العَناصِر وخَوَرُ الطَّبائع.

فاحرصُوا – بَنِيَّ– مادامَ الحال كذلك علَى أنْ تَرُدُّوا الأماناتِ٢ إلى أهلِها. فارجِعوا بصفاتِ الحَقّ إلى الحَقِّ التي هي حَقُّه دون مُنْازِعٍ،

١/ قيصرُ الشهوات: سلطانُ الشَّهوات وشيطانُها الذي يُجنِّدها ضد الإنسان وهو يتوجَّهُ بِهِمَّتِه نحو المعالي.

٢/ الأمانات هنا يُرادُ بها: الأسماءُ والصفاتُ التي أباح الله التَّخلُّقَ والتَّحقُّقَ بها لعباده، دون تلك التي للتَّعلُّقِ فقط من أسمائه جلَّ ثناؤه؛ وهيَ–أيْ الأسماءُ الحُسنىَ والصِّفاتُ الأسنىَ– لله عزَّ وجلَّ حقيقةً، ومنها ما هو للعبد مجازًا، فلا يجوز للعبد ادِّعاء ما لسيِّده لنفسِه استقلالاً إلا أن يكون استخلافًا من السَّيد للعبد. ولا يستطيع العبدُ أن يخرج مِن شهود هذه الصفات لنفسه إلا إذا تحقَّق بالصِّدقِ في عُبوديَّته لربِّه، والتزمَ أوصافَ العبد

وأَلْبِسوا العبدَ– بَنِيَّ– صفات العبودية مِنْ ذُلٍّ وافتقارٍ وتواضع، فهيَ حقُّهُ المُفْضِي إلى حقيقتهِ دون تَنازُعٍ مِن أحدٍ!! لأنَّها له وحدَهُ دون غَيْرِه؛ لِتَفَرُّدِهِ بِجَمْعِيَّة الحَقّ التى تقتضي فَرْدِيَّةَ الإنسَانِ عَن ما سِوَاهُ مِن المُرَكَّبَاتِ، التي خَلَتْ مِن خصائِصِ الإنسانيَّةِ الموعودةِ بالخلافةِ علَى الأرضِ، وبالكَرامةِ يومَ القيامةِ ما الْتَزَمَتْ الأمانَةَ وتَحقَّقتْ العِلْمَ بهِ تعالى.

فاعطوا الحُقوقَ أهلَها – بَنِيَّ– تكونوا مِن ذوي العدلِ. ومَنْ ردَّ الأماناتِ إلى أهلها– بَنِيَّ– فقَدْ فازَ بالثَّناءِ الإلهيّ حين يصِفُ اللهُ عبادَه الصَّالِحين بالأُمناءِ. فكونوا– بَنِيَّ– خلفاءَ رُسْلِ الله وُرَّاثًا لِهُدَاهُمْ. ولا تجعلوا أنفُسَكُمْ فِي موقِفِ الاستفْهَام الإلهي؟!! فإنَّه فِتنةٌ لكم ولِمَنْ معكُم مِنْ قومِكُم. ولئِن خَلُصَ مِنْه {كَلِمَةُ الله}[1] لعصمته واستنكاراً علَى الغيرِ، فإِنَّ بقيَّةَ عبادِ اللهِ عَدَا الأنبياء عليهم بالحذرِ والأمانةِ والتَّمكين. لأَنَّ التَّلوينَ– بَنِيَّ– مِن مَقَاماتِ المبتدئين، فلا تَقِفُوا عنده، ولا تطْلُبُوه. وكونوا مُتَجرِّدينَ للحقِّ بصفاتِ العبوديَّةِ، فلا يَبْدُوَنَّ علَى ظواهِرِكُمْ ما

التي هي له حقيقةً من فقرٍ وذُلٍّ وعجزٍ...الخ وشَهِدَ ما لله لله، كما قال سيدي ابنُ عطاء الله السكندري رضي الله عنه في حِكَمِهِ: [لا يُخرجُكَ مِن الوَصفِ إلا شهودُ الوصفِ].

[1]/ كلمة الله: هو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام والإشارة هنا إلى قول الله تعالى:

﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ الآية ١١٦ المائدة.

يَشْغَلُ بكم الخَلْقَ عَن الحَقّ لأنَّه لَيْسَ لَكُم بحَقّ، وإنَّما حَقُّكم رَسْمُ العبوديَّةِ وقفصُ البشريَّةِ، مع سُكونِ السِّمَةِ الإنسانيَّةِ، التي لا يُشْتَرَطُ أنْ تَتَحرَّكَ بِتَحرُّكِ الرُّوحِ الإنسانيَّةِ إلاَّ عند الضِّعافِ مِنْ أهل التَّلوين. أمَّا مَن استظهرَ مقامَ التَّمكِين– بَنِيَّ– فهو الثَّابتُ لأمرِ الله المَكِين.

ومَنْ ظهَر بين النَّاسِ بما لَيْسَ لَهُ مِن صِفاتِ الحَقّ، فقَدْ تَصرَّفَ فيما ليس له بِحقّ!! ومَنْ تَصرَّفَ فيما ليس له بِحقّ فقَدْ خانَ الله، ومَن خانَ الله– بَنِيَّ– طُرِدَ مِن حَضْرَتِهِ ولُبِّسَ عليه في نَظْرتِهِ، فَضَلَّ وأضَلَّ وهو يَحْسَبُ أنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعًا!!. فاتقوا الله – بَنِيَّ– وكونوا عَبيدَ الله أوَّلاً، ثم لِيُخْبِرْ الحَقُّ عنكم علَى لِسَانِ الفُرقانِ وأهلِ العِرْفانِ أنَّكم مِنْ أوليائهِ.

كُنْ كما تُري النَّاسَ وإلاَّ فأَرِهِمْ ما تَكُون

واحذَرُوا مُجالَسةَ أهلِ الرِّيَب، ومُخالَطةَ أهلِ العُهْر، ولا يَطْمَعَنَّ في ذلك مِنْكُم أحدٌ. وكونوا– بَنِيَّ– كَمَا تُرون النَّاسَ وإلاَّ فأرُوهُم ما تكونون. ولْتَعلمُوا أنَّ للذنوبِ رائحةً يَشتمُّها ذَوُوا الشَّمّ، وللخطئيةِ صورةٌ يَستشفُّها ذَوُوا البَصَرِ كَشفًا وفَراسةً. فإيَّاكم – بَنِيَّ– وتحديثَ النَّفسِ بما فيه معصيةُ الله، أو اختراق حُرُمَاتِه أو تَعدِّي حُدودهِ، لأنَّ مَنْ تعدَّى حُدودَ الله –بَنِيَّ– فقَدْ ظَلَم نفسَهُ بِوَضْعِها في غيرِ مَوضِعها، ومَنْ وَضَعَ نفسَهُ في غيرِ مَوْضِعِها عُلوًّا أو سُفْلاً، فَقَدْ عرَّضَها للمَقْتِ مِن الله والذَّمّ مِن العِبَادِ.

وتجنَّبُوا – بَنِيَّ– الخِفَّةَ في مجالِسكم، وتحاشوا كَثْرَةَ الكلام، فإنَّه لايَسْلَمُ صاحِبُه، وكفَى بالمرءِ حمقًا أنْ يَتكَّلمَ بِكُلِّ مايَعْلَم. ولا تعطوا – بَنِيَّ– مِن أنفُسِكُمْ إلاَّ بقَدْرٍ. واستملوا مِن عُيونِ مَن تُعاشِروهم خَبَايا نُفُوسِهم،

وتَفقَّدُوا دخـائِلَهُمْ فِـي فَلتـاتِ الأَلْسُـنِ وصَـفَحَاتِ الوجـوهِ. ولا يَحْمِلـنَّكم الحياءُ علَـى السُّكوتِ علَـى ما يَضُـرُّكم، فإنَّ الكَلامَ سلاحُ السِّلْم. ولا يَقْعُدَنَّ بِهِمَمِكم أَنْ تبلغَ العُلَـى وتَمْضِـي وِجْهَتَها مَنْ جَعَلَ يَذُمُّ الزَمانَ وأهْلَهُ ويَقُولُ: "لم يَبْقَ في الدُّنيا كريمٌ، ولا نجدُ فيها فاضلاً، وليس ثَمَّ مكَـانٌ مُطهَّـرٌ يُقَـامُ فيـه، فقَدْ ذَهَـبَ النَّـاسُ وبَقِـيَ النَّسْـنَاسُ، ومَضَـى الرِّجالُ، فَجَالَ اليومَ مثلَ مَجالِهم زُمُرٌ مِن الأوباشِ والأوغادِ"!!.

لا – بَنِـيَّ– إنَّ الخيْرَ في مُحَمَّدٍ ﷺ وفـي أمَّتـهِ إلـى يوم الـدِّين. واللهُ أحْكمُ مِن أنْ يترُكَ خيْرَ أمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ هَمَلاً دُون قائم بأمرِ الله، وهم شُهداءُ علَى النَّاسِ. بَلْ لا تزالُ طائفةٌ مِن أمَّة مُحَمَّدٍ قائمةً علَـى الحَقّ، لا يَضرُّهم مَنْ خالفَهم حَتَّى يأْتيَ اللهُ بأمرهِ. فاعْمَلوا – بَنِـيَّ– علَـى مكـانَتِكم فـي طاعـةِ اللهِ، وابتغـوا مِنْـهُ العفْـوَ والعافيـةَ والكرامـةَ والصَّفاء، ثم ابتغوه عِلْمًا ومَعرفةً وشُهودًا وتَحَقُّقًا وتَخلُّقًا.

ولا يَصْرِفَنَّكم عن وِجْهَتِكم مَنْ طَفِقَ يَسُبُّ الأَيَّامَ، مِمَّنْ قَصُـرَتْ هِمَّتُه عَـن بُلُـوغ المعـالي وتَنَسُّم رَوْحِ الفَتْح، فأضْـحَى ضَـجِراً يائسًـا يُنْحِـي باللاَّئمةِ علَى النَّاسِ ويَقْطَعُ علَى الجاهدينَ سَبيلَهُمْ، مُسِيئًا الظَّنَّ بِعبادِ اللهِ، يرَى نفسَـهُ فـي مَنْجاةٍ مِن ما رَمَـى بـهِ غَيْرَه، ولـو كـان مِن ذَوِي البَصَـرِ لَنَظَـرَ بِعْينِ الصَّـفاءِ إلـى عـالم القَضَـاءِ، فرأَى مَداخِلَ الـنَّفسِ علَـى رُتَبِ أهلِ الكَمَالِ تَحْجبُ عَنهم صفاءَ مَرتبـةِ العُبوديَّـةِ، وتُلْبِسُـهم صِفاتٍ ما هيَ بِحَقّ لهم، فَيَشْقُونَ بها حِينًا.!! فإذا كانَ هذا حالُ مَنْ عَـلا درجاتٍ فـي عِلْم الولاَيـةِ، فما بالُكَ بِمَنْ لا يـزالُ يُخْتَطَـفُ بِبُروقِ المَطـالِع ولوائح الإشراقِ!! التـي تُرَى الـنَّفسُ فِيهَـا كثيراً فتصيرُ حِجابًا لكثيرٍ مِن السَّالكينَ، الذين استبطأوا الكرامـةَ بالفتح، والإنعـامَ بالمعْرِفَـةِ، ولكَـنْ فـاتَهم أنْ يُـدْرِكُوا أَنَّ الإبطـاءَ مِـنْهم ولـيسَ مِـن مـا قُـدِّرَ، وإنَّمـا

إصـلاحُ المكَـانِ وإِعْـدَادُهُ هـو المـؤَخَّرُ، فَمَـا قُـدِّر للإنسـاِن آتٍ ولابُـدَّ. فاحرصـوا– بَنِـيَّ– أَنْ لا تُلقـوا بـالاً لهـذِه الفِئَـةِ. بَـلْ تَمَسَّـكُوا – بَنِـيَّ– بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِهِ قولاً وفعلاً، فإِنَّ مَنْ تَمسَّكَ بِهما لا يزالُ علَى العهد مع ربّهِ مادامَ مُمْسِكًا بِعُروتهِ الوثقَى وحَبْلِه المتين، ومَن ابتغَى الهُدَى فـي غيـرِ ذلـكَ أَضَّـلهُ اللهُ، لأَنَّ مُنـازِعَ الحـقّ مَخصـومٌ ولا شـكَّ. فـاجعلوا– بَنِـيَّ – مِـنْ الـدِّين قائـدًا ومِـنْ الحَـق رائـدًا ليَسْـهُلَ عليكم كلُّ خَطْبٍ، ويَذَلَّ لَكُم كلُّ صَعْبٍ.

رِقُّوا للقلوبِ تَسْتَرِقُّوها

واعلمـوا – بَنِـيَّ– أنَّ للـدِّينِ أعوانًـا وللحـقّ أنصـارًا وإِنْ قَعَـدَتْ عَـنْكمُ أجسـادُهُم لـم تقعـد عَـنكُمْ قلـوبُهم. وحَسْـبُكُم – بَنِـيَّ– أَنْ تكسـبوا قلـوبَ أحبابِكم، فإِنَّ الجوارحَ تميلُ مع القلوبِ، ولن تكْسبوا قَلْبًا بالمُخاشَنةِ، لأنَّ القلبَ رقيقٌ بطبعهِ، فَرِقُّوا لَـه تَسْتَرِقُّوه، وإِيَّاكم والفَظاظـةَ، فإِنَّهـا لا تستقيمُ معها عُشْرةٌ. وَقَدْ {جُبِلَتِ القُلوبُ عَلَى حُبِّ مَن أحسنَ إليها}[1]. ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾[2] نعـم ولِـذلكَ كَـانَ رَسولُـنا الأمـين ﷺ ﴿ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ ﴾[3]

١/ روى ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه، مرفوعاً وموقوفاً { جُبلتْ القلوبُ على حُبِّ مَن أحسن إليها، وبُغْضِ مَن أساء إليها}. وصحَّح البيهقي في شعب الإيمان وقفه. [الكامل في ضعفاء الرجال، ج: ٢ ص: ٢٨٦]. و[شعب الإيمان، ج: ٦ ص: ٤٨١].

٢/ آل عمران: ١٥٩.

٣/ التوبة: ١٢٨.

دَبّروا – بَنِـيَّ– أحبابَكم تدبيرَ عالِم رشيد، ورائدٍ رفيق. وتَدَبَّروا بآبائِكُم تـدَبُّرَ مَن نَظـرَ فـي الأزلِ بعينِ الأبـدِ، ومَنْ قـوَّم الحـالَ بـالموقِفِ فـي المآلِ. فمَنْ فعلَ ذلكَ – بَنِيَّ– فلايزالُ عَلَى خوفٍ مِن مَكرِ اللهِ. ومَنْ جَمَـعَ – بَنِـيَّ– بين "عِزَّةِ المُدَبّرِ وانقيـادِ المُتدبّرِ"[١] كَانَ فِي أمرهِ عَلَـى بيّنـةٍ، فهو سَـاَئسٌ لغيـرهِ مَسُـوسٌ بِغَيْرِهِ، إنْ حَدَّثتْـهُ نَفْسُـهُ بتصـعيرِ خَـدِّه للنـاسِ بحُكْم رِعَايتـه لهم، رَدَّهُ إِلـى الجـادَّةِ مِنْ طريقه كونُـه مَرْعِيًّا مِنْ غيْرِهِ.

وتَجنَّبـوا – أبنـائي– هَـذَرَ الكَـلام[٢] وفضـولَهُ فـإنَّ فـي الإكثـارِ عِثـارًا. والعاقلُ مَنْ عَقَلَ لسـانَه إلاَّ فـي الحقِّ. واعلمُـوا أنَّـه إذا تـمَّ عقلُ المرءِ

١/ الجمعُ بين عزَّة المدبّر وانقياد المتدبّرِ: هو أن يجمع العبدُ في سيره إلى الله، بين معنيين هما: حقيقة أنَّ عِزَّةَ الله في ملكه تقتضي أنْ يُصَرِّف أحكامَه ويفعل ما يشاء ولا يُشرِك في حُكمه أحدًا، وبين أنْ ينقادَ في خضوعٍ مُتدبّرًا أمرَ الله فيما طُلِبَ منه شَرعًا. وكأنَّ الأمرَ دعوةٌ للجمْعِ بين الحقيقة والشريعة. ومَن كان هذا حالُه كان متخلّقًا بأخلاق الله، مؤهَّلاً لخلافة الله في الأرض، فهو يُحْكِمُ تدبيرَ الشئون ويُبْرِمُها باطنًا وِفْقَ ما قضَى الله وقدَّر وأجرَى على يَدَيْ عبدِه الخليفةِ الْمُكْرَم، دون أنْ يتشوَّفَ هذا العبدُ الخليفةُ المكرمُ إلى الظهور بهذه الخصائصِ والصَّلاحيَّات في الظاهرِ، بل ينقاد مع ما يظهرُ مِنْ هذه الشئون في الناسِ كسائر الناس، دون أدنى شيءٍ يشيرُ إلى حقيقةِ أنه هو صاحب الإبرام لهذه الشئون بما خوَّله الله عزَّ وجلَّ فيها باطنًا. وهذا مِنْ كمالِ العبوديَّةِ وتمام الأدبِ مع الله عزَّ وجلَّ. وكان هذا هو شأنُ المؤلف – سيدي الشيخ عبد المحمود الحفيان– رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به آمين.

٢/ هَذَرُ الكلام: الهَذَرُ: الكلام الذي لا يُعْبَأُ به. وهَذرَ كلامُه هَذَراً: كثر فيه الخطأ والباطل.

نقصَ كلامُـه، ولْيعمـل كُـلٌّ مِـنْكم ماشـاءَ، فكَمَـا يـدينُ يـدانُ. وإِيَّـاكُمْ – بَنِـيَّ– والمَشَارَّة {فإِنَّها تَدْفِنُ الغُرَّة وتُظْهِرُ العُرَّة}[1].

واعلموا أنَّ ثلاثًا لا يُصْلَحُ فسادُهَا، وإنْ بَلْغتم في الاحتيال لها:

- أوَّلُها: عَداوةٌ في الأقاربِ.
- وثانيها: تحاسدٌ في الأكْفَاء[2].
- وثالثُها رَكاكةٌ في الخُطباء.

فَسُدُّوا مَنافِذَها إليكم– بَنِـيَّ– قبل أنْ تَقَعَ بينكُمْ، فأَنَّها إنْ وقعتْ فكَأنْ قَدْ.[3]

الرَّاحةُ وعُلوُّ الهِمَّةِ لا يجتمعان

واحذروا – بَنِـيَّ– خمسًا فإنَّ قليلَها كثيرٌ: الجهلُ، والحرامُ، والعداوةُ، ومرضُ القلوبِ، ونيرانُ الحسدِ. واصطَنِعوا الرِّجالَ– بَنِـيَّ– فإنَّـه مِن علاماتِ الإقبال. وافعلوا الخيْرَ عند الإمكان يبقَى لكم حَمْدُه بعد زوال

١/ روى الطبراني عن يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ ﵁ والبيهقي عن أبي هريرة ﵁ مرفوعاً: {إياكم ومُشَارَّةَ الناسِ، فإنها تَدْفِنُ الغُرَّة وتُظْهر العُرَّة}. [المعجم الصغير، ج: ٢ ص: ٢١٧]. و[شعب الإيمان، ج: ٦ ص: ٢٩٦]. والمَشَارَّةُ: أن تفعل الشر بالناس، فيفعلوا فيك مثله. و{تَدْفِنُ الغُرَّة وتُظْهر العُرَّة}: أي تستر المحاسن وتظهر العيوب. قال ابن الأثير: {الغُرّة}: ها هنا: الحَسَنُ والعَمل الصالح، شبَّهه بِغُرّة الفَرس، وكل شيء تُرْفَع قيمتُهُ فهو غُرّة. و{العُرّة}: هي القَذَر وعَذِرَة الناس، فاستُعير للمَساوِي والمَثَالب. [النهاية في غريب الحديث والأثر، ج: ٣ ص: ٣٥٤]. و[لسان العرب، ج: ٥ ص: ١٩].

٢/ الأكْفاءُ: النُّظراء. جمعَ كُفْءٍ، والكُفْءُ: النظير والمُساوِي، التَّكافُؤُ: الاسْتِواء.

٣/ فكأن قد: –من بلاغة الاكتفاء– وهو بمعنى:"فكأن قد وقع ما حذَّرتكم عنه".

الأَيَّام. واعلموا – بَنِيَّ– أنَّ الحوائج تُطلَبُ بالعَناء، وتُبْلَغُ الغاياتُ بالجِدِّ، وتُنَالُ الأماني بالجهد، والعملِ الجادِّ، وما بلغ غايتَه مَنْ عَجِزَ. والمرءُ بساعته والفقيرُ بوقتِه، فخُوضوا فيه غِمارَ المَشَّقات، تَخْلُص لكم الطَّاعات.

واحْرِصُوا – بَنِيَّ– عَلَى قَتْلِ أنفْسِكُمْ في سبيلِ الله، تُوهَب لكم حياتُها بهِ. وأنفقوا ممَّا جَعلَكُم مُسْتَخلَفين فيه وإنْ كَانَ شاقًّا، فإنَّ المَشقَّةَ طريقُ المَجْدِ والخُلُود. وماسادَ خانِعٌ وما وُلِّيَ خائنٌ وما تقَدَّمَ شحيحٌ وما أُمِّرَ جَبانٌ..

أتُحِبُّ أنْ تعلُو بغيرِ مَشَقَّةٍ	لولا المَشقَّةُ لا يُنَالُ عُلاَهُ
جاهِدْ تَنلْ واصبِرْ تَفُزْ واصدُقْ تَسُدْ	واسْهَرْ تَذُقْ واعْبُدْ يَهَبْك عَطَاهُ
أننامُ ليلاً ثم نُدْعَى سادةً؟!	هذا الضَّلالُ البَحْتُ وا أسَفَاهُ

فإنَّ الرَّاحة – بَنِيَّ– وعُلوَّ الهمَّةِ لا يجتمعان، وليس ثَمَّ هِمَّة أعَلَى مِنْ هَمَّةِ طالبِ الحَقّ والمهاجِرِ إلى اللهِ. فإذا كَانَ صاحبُ الدُّنيا– بَنِيَّ– مِن التَّعَبِ والنَّصَبِ والجهْدِ فِي سبيلِهَا بحيثُ ترَوْنَ! وهيَ الحَيَاةُ الدُّنيَا، والظلُّ الزائل، والعيشُ الحائلُ، فكيفَ الرُّكونُ إلى الرَّاحةِ وأنتم بسبيلِ النَّعيم المُقيم والمَقام الأعلى. ولن يَبْلُغَه– بَنِيَّ – إلاَّ الجادُّونَ المُدْلِجون. وَقَدْ قَالَ أبو الطيِّب أحمدُ بنُ الحُسين[1]:

١/ أبو الطيب: هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي، الكندي، الكوفي، أبو الطيِّب المتنبي. الشاعر المشهور، وإنما قيل له: المتنبي [وكان لا يرضاه] لأنه ادَّعَى النبوة في بادية السماوة كما قيل، وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم، حتى حبس، ثم تاب، وأطلق. ولد بالكوفة، سنة ٣٠٣هـ بمحلة كندة، وقدم إلى الشام في صِباه، وجال في أقطاره، واشتغل بفنون الأدب، ومهر فيها، وكان من المكثرين في نقل اللغة،

لــولا المَشــقَّةُ ســادَ النَّــاسُ كلُّهــمُ   الجــودُ يُفْقِــرُ والإقْــدَامُ قتَّــالُ

أُوصِيكُمْ – بَنِيَّ – بالجِدِّ في الطَّاعَاتِ، ومُبَادرةِ الأعمالِ الصَّالحات. والوَحاء[1] الوَحاء: فإنَّه قَدْ دنَا مِنْ اللهِ فراغٌ لخلقهِ، فتفرَّغُوا للحَقّ قبل أنْ يَفرُغَ لكم، فإنَّه لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، فكونُوا في شئونهِ يَكُنْ معكم، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾[2] ويُلقي عليهم محبَّةً مِنْ عنده في قلوبِ عِبَادِه، ويُحْييهم حياةً طيِّبةً تليق بحُــبِّ الله الطَّيــبِ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[3] فهذا– بَنِيَّ– وعدٌ مِنْ الله غيرُ مَكذوب.

فاتَّجِروُا – بَنِيَّ– مع الله بصالح الأعمالِ وخالِصِ النِّياتِ، فإنَّ سُوقَ الدُّنيا كاسِدةٌ مادامتْ إلى زوال. والذين يُتاجُرون مع الله في صدقِ وصفاءِ ضمائرٍ وخُلوصِ نيَّات وإحسانٍ يقيني، يرجونَ تجارةً لن تبور.

والمطّلعين على غريبها وحوشيها، لا يُسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر، وكان شعره بلغ الغاية من الفصاحة، والبلاغة، والحكمة، وسائر المحاسن، بحيث لا حاجة إلى مدحه. واعتنَى العلماء بشرح ديوانه، حتى قال بعضهم: وقفتُ له على أكثر من أربعين شرحًا، ما بين مطول ومختصر، ولم يُفعل هذا بديوان غيره، قتل في رمضان، [سنة: ٣٥٤هـ]. [أبجد العلوم للقنّوجي، ج: ٣ ص: ٧٤]. و[المدهش لابن الجوزي ج: ١ ص: ٤٩٠]. و[قرى الضيف لابن قيس ج: ١ ص: ٢٥٨].

١/ الوحاء: السرعة.

٢/ مريم: ٩٦.

٣/ النحل: ٩٧.

واعلموا– بَنِيَّ – أنَّ مَنْ نَهَضَ في جوفِ الليل الغابرِ تاركًا عُرْسَهُ وناعِمَ فَرْشِه، يُرِيدُ أنْ يُرضِي اللهَ عزَّ وجلَّ، رَضِيَ الله عَنْهُ وقَضَى لهُ حَاجَتَه في الدُّنيا والآخرة.

وأدعوكم – بَنِيَّ– إلى السَّعي بجهدٍ وجدٍّ وراءَ الحَقّ، لتكون لكم البيِّنةُ منه في أمرِكُمْ، ومتى ما أَسْفَرَ الحقُّ بينه وبينكم بأمرٍ مِن حَضْرةِ الخطابِ الإلهي في منزلِ الأمانةِ مِن منازلِ الحضرةِ المحمديَّة، التى تُدَارُ باسمه الأمين فخُذوه بقوةِ الهِمَم، واعملوا بما جاء فيه، واتَّخذِوه دليلاً واعتمدوا علَى دلالته. فما أثبتَهُ فأثْبِتُوه، وما نفاه فانفوه. لأن صاحب الخطاب الإلهي– بَنِيَّ– عَلَى بيّنةٍ مِنْ ربّه تتمثَّل نورًا ساطعًا، وصِراطًا مستقيمًا لا يَعْوَجُّ بصاحبهِ إذا اعْوَجَّتْ الطُّرُقُ بأهلها.

وأُحذِّركم– بَنِيَّ– القعودَ علَى طريقِ الآخرةِ وأنتم وِجَاءٌ[1] وَحِلُون، لا تسيرون بمَنْ معكم إلى الحَقّ، ولا تتركون أحدًا مِنْ الطَّالبين له يَجُوزُكمْ إليه. بل سارعوا في الخيْرات– بَنِيَّ– واستبقوا الصِّراطَ، واعلموا أنَّ السَّابقين السَّابقين أولئك المُقرَّبون. ولن يَسبِقَ مُثْقَلٌ– بَنِيَّ– فتَخَفَّفوا جَهْدَ الطَّاقة، واجعلوا قُوتَكم كَفافًا، وإنْ مَلكْتُمْ الدُّنيا. لأنَّه القُوتُ الأَمْثَلُ بالمسافرِ، وهو مافَضَّلَهُ رسولُنا الكَريمُ مُحَمَّدٌ ﷺ حين قَالَ: {اللهم اجعلْ قوتَ آل مُحَمَّدٍ كفافًا}[2]؛ وهُو الذي لو شاءَ لَجَعلَ الله له بطحاءَ

١/ وِجاء: جمع وجيء وهو معوق الظِّلف.

٢/ أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله {اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا}. وفي رواية: {كفافاً}. [صحيح مسلم، ج: ٢ ص: ٧٠٣ و ج: ٤ص: ٢٢٨١]. و[سنن الترمذي، ج: ٤ ص: ٥٨٠]. و[سنن ابن ماجه، ج: ٢ ص: ١٣٨٧]. و[صحيح ابن حبان ج: ١٤ ص: ٢٥٤].

مكةَ ذهبًا. فلا تَرْغبوا عَنه إِلى سواه فإنَّ ما اختارَهُ هو الخيْرُ، ولا شرَّ مع العِصمةِ، كما أنَّه لا إصرارَ على ذنبٍ مع الحِفظ.

فلا تنتهروا – أبنائي– الفقيرَ، فتنهركم الملائكةُ يوم القيامة، ولاتقهروا اليتيمَ فإنَّ الله أشدُّ قهراً، وهو أقْدَرُ عليكم مِنْ قُدْرَتِكم علَى خلقِه، فاتَّقوا الله في خلقه، ولا تَعْكسوا فَتنْكِسوا.

متى أضرَّ نفلٌ بِفرضٍ فَارْفُضُوهْ

ولتعلموا – بَنيَّ– أنَّ في الطريقِ بعضَ المَزالِقِ التي تنأى بِرَاكِبِها عن مَتْنِ الشَّريعة، فإيَّاكم وارتكابَها. ولئن استوتْ أقدامُكم – أبنائي– مِنْ مَداحض[١] الفتنِ عَلَى الثَّابتِ مِنْ أمرِ الحَقّ، والصُّلبِ مِن القَصْدِ إليه، فَجِدُّوا في تغييرِ ما يُنْكِرُه الحَقُّ، وإنْ تَواضَعَ النَّاسُ عليه، لأنَّ مَنْ نَظرَ إلى الحَقِّ الأعلَى لم يرضَ بما تلاهُ مِن الحُقوقِ بديلاً. فانظروا– بَنِيَّ– إلى الحَقِّ الأعلَى، واعرفوا بهِ الرِّجالَ، وارْشُدوا إليه دون سِوَاه. لأنَّ الإرشاد إلى طريقِ الحقّ عهدٌ، وإنَّ العهدَ كَانَ مَسئولاً. فَغَيِّروا– أبنائي– مِنْ عاداتكم، ورَيِّضوا مِنْ نُفوسِكم لِتُلائِمَ الحَقَّ، ولن يُغَيِّرَ الله ما بقومٍ حتَّى يُغَيِّروا ما بأنفسهم. والتزموا فرائضَ الله– بَنِيَّ– فقَدْ وَضعتُكم في مُنتصفِها، وَقَدْ غيَّرتُ فِيكُمْ تغييرًا يُناسِبُ ما أرجوه لَكمْ مِنْ تغييرِ الحَقّ الذي أراه قريبًا.

والفرائضُ ـ بَعْدُ ـ هي حقُّ الله الذي يجبُ المحافظةُ عليه وجوبًا عَيْنِيًّا ومتى أضرَّ نفلٌ بفرضٍ– أبنائي– فَارْفُضُوهْ، لأنَّ الفرْضَ لله والنَّفل للعباد، فلا تُتِمُّوا مالَكمْ بِضياعِ حقِّ الله. لأنَّ مَنْ أضاعَ حقَّ الله –

١/ مَداحض: مزالق.

بَنِـيَّ– كَـانَ لغيرهِ أضْـيَع. ومـا تَقرَّب عبدٌ إِلـى الله بأحبّ ممـا افترضَـه عليه.

ولا تَنْسَوْا فإنَّ مَنْ تذكَّرَ بُعْدَ السَّفَرِ استَعدَّ لـهُ، ومَنْ تَفَكَّرَ فـي وحشـةِ الطَّريقِ أعدَّ الصالحَ مِنْ الرَّفيقِ، ولا رفيقَ أرْفَقَ مِن الله؛ ولنْ يَكون إلاَّ مع الذين اتَّقوا والذين هم مُحسنون. واعلموا– بَنِيَّ– أنَّ قليلَ العبادة مع المداومة عليها، خيْرٌ مِنْ كثيرِها مع الملالِ، وأحسنُ العَمَلِ أدومُه وإن قَلَّ كَمَا جَاءَ في الأثر[1].

غنيمةُ الأكياس

وأحْسِنُوا– بَنِيَّ– مابينكُم وبَيْنَ اللهِ، يُحسْن اللهُ مابينَكُم وبين عِبَادِه. ولا تفوتنَّكم– بَنِـيَّ– غنيمـةُ الأكْيـاسِ. أتـدرون ماغنيمـةُ الأكيـاسِ!؟ إنَّـها الطَّـاعـةُ عند تفريطِ العَجَزَةِ. والعجزةُ يُفَرّطون حين تَثْقُلُ بهم البطـونُ، وتنطبقُ علَى أعينِهم الجُفونُ، حينَ تَهُبُّ نَسماتُ السَّحَرِ لِتُنْعِشَ وتَسْمُو بالـذينَ يَبيتونَ لِرَبّهِمْ سُـجَّدًا وقيامًـا، فمَنْ قـامَ سـاعتَها والليلُ دَاج سـاج يرجو رَحمةَ اللهِ بطاعتِه، ورِضَـاءَهُ بِمَراضِـيهِ، كـان مِن الأكيـاس!! ومَنْ استجابَ لِنَهْنَهَةِ الشَّيْطانِ وثَقُلَتْ عُقَدُهُ عَلَـى رأسِـهِ، وغَـرَّهُ طـولُ الأمـلِ، كَانَ مِن العَجَزَةِ المُفَرّطين.

---

[1]/ أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنَّسائي عن عائشة رضي الله عنها. [انظر الجامع الصغير، الحديث رقم: 1439].

فِرُّوا إلى الله

وأوصيكُم– بَنِيَّ– أنْ تفرُّوا إِلَى الله، فهو الجامعُ لِمَكارمِ الأخلاقِ. ومَنْ فرَّ بَنِيَّ– إِلَى الله حقَّ الفِرار كَانَ عطاؤهُ بِقَدْرِ مَنْ فرَّ إليه، ولن يَقْدِرَ اللهَ إلا اللهُ، فلا عطاءَ لمنْ فرَّ إِلَى اللهِ إلا اللهُ لأنَّه جِماعُ الخيرِ، ومَبْعَثُ الكَثرة الأسمائية، بمُسمَّياتِها، والكُلُّ يَفِرُّ مِنْ القليل إِلَى الكثير، ومما يخافُ إِلَى ما يرجو، وما ثمَّ أرجَى مِن الله ولا أعظمَ مِنْه، فهو مِن وراءِ الكُلِّ مُحيط. ففروا إِلَى الله ـ بَنِيَّ– يَكُنِ العطاءُ سَرْمَدًا باقيًا ببقاءِ مَن فَرَرْتُمْ إليه. ومَنْ يتوكل علَى الله فهو حَسْبُه.

والفارُّ خفيفٌ– بَنِيَّ– لأنَّ الحمْلَ يُثْقِلُ عن الفِرار. فتَخفَّفوا – بَنِيَّ– مِنْ الأوزار، وأخلصوا في الفِرار، يَتجلَّى لكم وجهُ اللهِ في كُلِّ ماتَرَوْنَ، ومَنْ تَجلَّى له الحَقُّ في كُلِّ ما يرى كَانَ خَلِيقًا بالخلافةِ على الأرضِ إرثًا مُحَمَّدِيًّا. ولكنَّ الخلافة تقتضي الإذن مِن المَلِكِ، والإذنُ تَلزمُه سِمَةٌ تُصَدِّقُهُ، والسِّمَةُ يجب أنْ تكون مِنْ سِمَات المَلِكِ، ومِن سِمَاتِ المَلِكِ أنَّه: حليم، ودودٌ، صبورٌ، شكورٌ، رؤوفٌ، رحيمٌ، خبيرٌ، عزيزٌ، قَديرٌ.

ولن تَتَحقَّقَ الخلافة مالم تتوافر سِمَاتُ الحَقّ في خليفته، ولكنْ بالمِقدار الذي لايطغَى على صفاتِ الرعايا فيه لأنَّه بها ومِنْها، تسْتند عليه في كلِّ أمرٍ مِن الأمور الكُلّيِة. {وعلى ذلك كان لِزَامًا علَى مَنْ تَحقَّق بالخلافة أن يكون ظاهرُه خَلْقًا بحيث لا يُنكَرُ عند الرَّعايا، لأنَّه ما ظهرَ ظاهرٌ إلا بظهورِ الحَقّ الظاهرِ فيه. ومتى ما أنكرَ أحدٌ ظاهرَ الخَلْقِ فقَدْ أنكرَ ظاهرَ الحَقّ، كما أنه متى ما خَلا باطنُ الظاهرِ – مِن الخلقِ – وعَرِيَ مِن الحَقِّ، كانَ حِجابًا للناس دون

الحَقِّ. فاحرصوا – بَنِيَّ– عَلَى أن تكونوا بالحَقّ في الخلقِ على ظاهر البِنْيَةِ البشريَّة، تكونوا وُقَاةً للحَقّ في الذَّمّ.}[1]

إيَّاكم وما يُعْتذَرُ منه

وإيَّاكم وما يُعتذَر مِنْه – أبنائى– فإنَّ الاعتذار لُمْظَةٌ[2] مِنْ كرامة النَّفسِ وعِزَّتها، وَقَدْ ذمَّ الحَقُّ المُعذِّرين. فاحذروا أنْ تكونوا فى مَعْرضِ الذَّمّ بالاعتذار، خصوصًا الاعتذار عما يَجْلِبُ لكم الخيْر، ويَدْفع عنكم الشَّر فى طريق الحَقّ. فاستغنوا – بَنِيَّ– عَن العُذْر ما استطعتم لأنَّ الاستغناء عن العذر أكرمُ وأعزُّ مِن الصِّدق بهِ.

مقامات الصِّدْقِ في مُعاملةِ الحقِّ

واحرصوا – بَنِيَّ– كُلَّ الحرصِ علَى أن تعاملوا الحَقَّ بالحَقّ، فإنَّ ما سوى الحَقّ هو الباطلُ، والباطلُ هو السّلوب[3] والسّلوب في حقيقته عدمٌ، لأنَّ الله ماخلق السَّماوات والأرض ومابينهما إلا بالحَقِّ، فمنْ

١/ في هذه الفقرة مِن الوصيَّة دَعوةٌ لِمَنْ تحقَّقَ بالخلافة وتقلَّدَ أمر الناس، أن يكون باطنُه مشاهدة للحقّ، وظاهرُه مجاهَدة لتنفيذ أمرِ الحقِّ في الخلق بما يتناسب مع ملكاتهم وقدراتهم البشريَّة، لا بما لديه هو مِن طاقاتٍ روحية وسِمَاتٍ خصوصيَّة. وهذا يستلزم أن تسودَ أحكامُ الباطنِ الباطنَ، وتسود أحكامُ الظاهرِ الظاهرَ. فالعارف مَنْ رَعَى الحضرتين وسلك في كلٍّ بأحكامها وعلومها وآدابها، لا مَنْ خلطَ هذا بذاك وضيَّعَ الحقَّ، لأنَّ الكلَّ حقٌّ، والله جلَّ جلاله هو الظاهرُ كما أنَّه هو الباطن.

٢/ اللُّمْظة: كالنُّكْتة من البياض، ويقال: في قلبه لُمظة أَي: نُكتة. وفي الحديث: {النِّفاق في القلب لُمْظة سوداء، والإيمانُ لُمظة بيضاء، كلما ازْدادَ ازْدادتْ}.

٣/ السّلوب: الجحود والإنكار.

تَسَقَّط الباطلَ ليعامل بـهِ الحَقّ ومَنْ تحرَّى العدمَ ليعامل بـهِ الوجود، فهو– بَنِيَّ– مِمَنْ عَمُوا وصَمُّوا ثم عَموا وصمُّوا عن سبيل الله، فكان مِنْ أحفاد القِردةِ والخنازيرِ ١ الذين عامَلوا الحَقَّ بباطل الكذب في تَلقِّي أوامرِ الله. فتجَنَّبوا– بَنِيَّ– سبيلَ الرّياءِ فِي معاملةِ الحَقّ لأنَّه لا يقْبَلُ إلا الصِّدق، ولن يَكْمُل صِدْقُ أحدِكم في مُعاملةِ الحَقّ إلا إذا قامَ مَقاماتها الثلاثة:

١. وأوَّلُها مقامُ معاملةِ الظاهِر: وهيَ معاملةٌ تقتضي الظُّهور في أداءِ كُلِّ عَمَلٍ فرضَه الحَقُّ عَلَى عِبَادِه والسَّيرَ بين عباد الله بالحَقّ الظاهر فيهم، وهذا بالضَّرورةِ يُملِي عَلَى مَنْ تحقَّق بهِ أن يكون ظاهرُه صدًى لباطنه، وترجمةً صادقةً لما يجولُ في قلبهِ، لأن الحَقَّ في الظاهر والباطن واحدٌ "فهو الظاهر والباطن".

فاحذروا – بَنِيَّ– أنْ تعامِلوا الحَقَّ بالحَقّ في الظاهِرِ والبواطنُ مَلأَى بالباطل، فإنَّ مَنْ فعلَ ذلك فَضَحهُ الله عَلَى رؤوس الأشهاد. ومَنْ لم يَفضَحه استدْرجَهُ مِنْ حيث لا يعلم وأمْلَى له في كيدٍ متين لا تخترقُه أحابيلُ مكرِ الباطل، حتى إذا أخذَه الحَقُّ أخذَهُ أخْذةَ عزيزٍ مقتدر. وأُحذِّرُكُمْ– بَنِيَّ– أخْذَةَ الله فإنَّها رابيةٌ٢.

١/ وهو إشارة إلى قصة أصحاب السبت في سورتَيْ البقرة والأعراف. وأصحابُ السبت هم مِنْ المغضوب عليهم اليهود الذين عرفوا الحقَّ لا ليتَّبعوه ويهتدوا، بل لِيَتَنَكَّبوا طريقَه ويُضِلُّوا الناسَ، وألبسوا الباطلَ ثوبَ الحقِ. وتوجيهُ الشيخ رضي الله عنه مِن معنى قوله ﷺ : [لا ترتكبوا ما ارتكبتْ اليهودُ، فتستحِلُّوا مَحارِمَ الله بأدنَى الحيل].

٢/ رابية: زائدة في الشِّدَّة.

٢. وثـاني مقامـات المعاملـة: معاملـةُ القلـبِ البـاطنِ للحـقّ البـاطنِ فيه: ولن يتأتَّى لقلبٍ أنْ يُعامِلَ الحَقَّ إلا إذا عرفه. ولن يصلَ القلبُ إِلَى المعرِفَةِ مالم يَصْفُ ويَجْلُ ويَشِفُّ. ولن يَجْلو قلبٌ ويَرِقَّ ويَصْفو إلا بالعُزوف عن الدنيا. ولن يَعزُفَ قلبٌ عن الدُّنيا إلا إذا عَلتْ هِمَّتُه عن مصاحبةِ الكونين١ لِتَصِلَ إِلى معرفة العَلِيّ القَدير. ومتَى عرفَ الإنسانُ الحَقَّ في عُلُوّه، أفضَى بهِ ذلك إلى معرفةِ الأشياءِ علَى ما هيَ عليه، ومَنْ عرفَ الأشياءَ علَى ماهيَ عليه سَكَنَ لمجاري الأقدار، وتبيَّنَ الحَقَّ في جميع الأحوال، فلا الصِّحَّةُ تُطْغيهِ ولا السَّقَمُ يُشْقِيهِ، لأَنَّ القلبَ المعلَّقَ بالله لا يأْلَمُ ولا يَطْغَى. إذْ أنَّ معاملةَ اللهِ بالباطنِ تَعني اليقينَ الصَّادقَ بِحكمةِ الحَقّ، الذي يجب أنْ يُطاعَ طاعةً لا تَرَدُّدَ فِيها، ويُتَّقَى حقَّ تُقاتِه التي قدَّر لعبدِه، حتى يوفِّقه الله إِلَى الاستقامةِ علَى الطَّرِيقَة الوسطَى والشِّرْعَةِ

١/ الكونين: الدنيا والآخرة. وارتفاعُ هِمَّةِ العبدِ عن مصاحبةِ الكونين: بمعنى أن لا يرضَى بغير الله بديلاً في الدنيا والآخرة، وهو مِن معنى ما تقدَّم مِن قولِ الشيخ ﷺ:{ولا تطلبوا ثواب الآخرة في الدنيا ولا ثواب الدنيا في الآخرة}؛ وكما أُثِرَ من أقوال السيدة رابعة العدوية: {اللهم إن كنتُ أعبدك طلبًا في جنَّتك فاحرمنيها وإن كنتُ أعبدك خوفًا من نارك فاصلينيها}!!. لأنَّ السيدة رابعة رضي الله عنها كانت ترى في عبادة العبدِ لربِّه من أجلِ الجنة عملٌ معلولٌ، والإخلاص فيه مدخول بانتظارِ العِوَضِ وهذا لا يليق، لأنه أشبهُ بأسلوبِ وطريقةِ التُّجَّار؛ كما أنها رضي الله عنها ترى في عبادة الله خوفًا من النار أخلاقَ عَبيدِ السُّوءِ الذين لا يعملُون إلا إذا خافوا! فأسلوبُ عبيدِ السوءِ والتُّجار لا يليق مع الله الكريم ذي الجلال، وإنما الذي يليق هو تعامل العِبَادِ الأحرار الذين يعبدون الله حُبًّا وإكبارًا، كما جاء في الأثر: [رحم الله صهيبًا لو لم يَخَفْ اللهَ لم يعصه].

الواضحةِ والمَحجَّةِ البيضاء التي ليلها كنهارها، مَنْ ظَهَرَها[1] لم يَعُدْ يَخْفَى عليه شيئ، حتى أنَّه "لو كُشِفَ عنه الغطاءُ لم يزددْ يقيناً".

٣. وثالثُ مقاماتِ المعاملة- بَنِيَّ- معاملةُ السِّرِّ: ولن يُدْرَكَ هذا المقامُ إلا إذا سَلِمَتْ معاملةُ الباطنِ، وتَطَهَّرَ القلبُ مِنْ كُلِّ دَغَلٍ[2] وصَفَا مِنْ كُلِّ رانٍ، حَتَّى عادَ شَفيفًا نَقِيًّا يسمحُ بمرورِ أنوارِ حقيقةِ الحَقِّ، لتنعكسَ عَلَى مِرآةِ السِّرِّ فيه إشاراتٌ إلهيَّةٌ وحقائقُ عِرفانيَّة، يَتوصَّلُ السِّرُّ النَّقيُّ الزَّكيُّ بها إِلَى معرفةِ ضُروبِ الإلهام والخَطراتِ واللَّمَّاتِ. ومتَى أدركَ السِّرُّ ذلك كان عَلَى بيَّنةٍ مِنْ خَفِيِّ أحكام الحَقِّ، وبانتْ له شِدَّةُ مكرِ اللهِ ومَتانَةُ كيدِه، فباتَ حَذِرًا مِن الله يَخافُه فِي كُلِّ خَطْرَةٍ ونَفَسٍ، لِعِلْمِهِ بِمُقتضياتِ التَّأَدُّبِ مع الحَقِّ في معاملةِ الأسرار. فهو يَخْشَى اللهَ خَشْيةَ مَنْ عَلِمَ الأمر عَلَى ماهو عليه. وَقَدْ صدق الحَقُّ: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ ﴾[3]. وتجنَّبوا الكِبْرَ- أبنائي- فِي هذا المقام فإنه يَزلُّ بصاحبِه إِلَى قِيعانِ السَّلْبِ ومهاوي الصَّغَار.

الرِّعايةُ ومَقاماتُها

واجتهدوا كُلَّ الاجتهادِ- بَنِيَّ- عَلَى أنْ تُوفوا الرِّعايةَ حَقَّها. فكلُّكم راعٍ وكُلُّكم مَسئولٌ عنْ رعيَّته. ولا يَشْرُفُ الرَّاعي إلا إذا شَرُفَ المَرْعِي،

١/ ظَهَرَها: بمعنَى وُفِّقَ لها وللاستقامة عليها.

٢/ دغَل: خلط.

٣/ فاطر: ٢٨.

فليسَ مَنْ يرعَى الشُّعوبَ كمَنْ يرعَى السَّوائمَ؛ وبين الشُّعوبِ تفاوتٌ في الرُّقِيّ والحضارة، وبين السَّوائم درجاتٌ مِن الطِّيبةِ والخُبثِ. ولَئِنْ تساوَى الجنسُ المَرعِي، فإنَّ التَّفاوتَ واقعٌ في تباينِ الأنواع، ودرجاتِ الارتفاع على دَرَج الرُّقيّ والسُّمُو. ولن يجد الباحثُ عن ما يرعاهُ أشرفَ ولا أكملَ ولا أعزَّ مِنْ جَنْبِ الله. لأنَّ مَنْ فرَّطَ في جَنْبِ الله فقَدْ خَسِرَ، وإنْ كان مِن الحريصينَ الحاذقينَ في حِفظِ غيرِه.

فارْعوا حقوقَ اللهِ عندكم– بَنِيَّ– تُفلحوا. تفَقَّدوا غائبَها فَرُدُّوهُ إِلَى حظيرةِ العَمَلِ مِنْكم، وغَذُّوا حاضِرَها بالشُّكر والأداء وحُسْنِ القيام يُكْسِبُكم بها الحَقُّ نماءً، ويَزِدْكُمْ بزيادتها خيرًا وبركةً.

وثلاثةٌ – بَنِيَّ– تَستوجِبُ مِن الرَّاعِي اليقظةَ، والتَّنبُّهَ، والكياسَةَ، وحُسنَ الانتجاع.[١]

١. أوَّلها الظاهر: فلا يَستترَنَّ الظاهرُ مِنْكم بثوبٍ يُنكرُه الشَّرعُ، وإنْ كان ثوبًا مِنْ لبوسِ الحَقّ الباطنِ، لأنَّ في ظهورِ الباطنِ– بَنِيَّ– تعطيلٌ للظاهرِ، وهذا يُنافِي الكمالَ الإلهي، الذي يجبُ أنْ تَتَحقَّقَ جميعُ صفاتِه الوجوديَّةِ الكماليَّةِ عند العارفِ علَى الحقيقة بهِ، وإلا أضاعَ مِنْ مَعرفةِ الله بِقَدْرِ تفريطِه في إعطاءِ كلِّ اسم مِنْ أسمائه تعالَى ما يَستحقُّه مِن القيام بهِ في المملكةِ الإنسانيَّة.

كما أنَّه في تعطيلِ ظاهرِ البشريَّة بإظهارِ باطنِ الخُصوصيَّة –والكلُّ حقٌّ–حَجْبٌ للخلقِ عن حقيقةِ الحقّ الظاهرِ فيهم، وبالتَّالي إهمالٌ للحقّ الظاهرِ بحثًا وتشوُّقًا لما بَطَنَ مِنْ هذا الحَقّ، وفي هذا ذريعةٌ

١/ الانتجاع: الابتعاد.

كبرَى لتعطيلِ وسائلِ الحياةِ، وإبطال الكُلْفَةِ بالحَقِّ الظاهرِ مادام ليس بغاية. ألا ترَى أنَّه بِكشْفِ الغِطاءِ يبطلُ التَّكليفُ؟! ولن يُكشفَ غطاءُ الحَقّ الشَّاهِدِ إلا بالحَقّ الغائبِ حينَ شُهودِه، أتدرون ما الحَقُّ الغائبُ حينَ شُهودِه؟! إنه المَوْتُ الحِسّيّ. وعندَهُ فقط يَبْطُلُ التَّكليفُ بِكشْفِ الغِطاءِ: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[1]. وَقَدْ يُكشف الغطاءُ بالموتِ المعنوي، ولكنَّه كَشْفُ تأكيدٍ وإيقان، لا كَشْفُ تعطيلٍ لأمرِ الحقّ في الأعيان. ومَنْ ذاقَ هذا الكشفَ بخلافِ ذلكَ فقدْ لُبِّسَ عليه، وأوتِيَ مِنْ حيثُ لا يعلم!! فلْيرجَعْ علَى آثارِه قَصَصًا عَلَّهُ يَجِدُ ما فقدَهُ مِنْ الحَقّ عند التقاءِ البحرين فيه!!

ولن تَتمَّ لكم- بَنِيَّ- رعايةُ الظاهرِ إلا بالعِلْم، الذي يُحقِّقُ صِدْقَ الإرادةِ للحقّ. وبتحقيقِ صِدْقِ الإرادةِ للحقّ -بَنِيَّ- يتقاربُ المُرادان، وتَجْتمِعُ الهمَّة، ويتوحَّدُ القَصدُ. وبتوحُّدِ القَصدِ، وصِدْقِ العزيمةِ، وعُلُوِّ الهمَّةِ، تُعتلَى المقاماتُ المنيفةُ، وفى اعتلائها بإذن الله العِلْم الذى لا جهل بعده. وكفَى بالعلم وازِعًا عن حُرُمات الله، وتَحصينًا للظواهرِ، لمَنْ خاف مقام ربِّهِ ونهَى النَّفسَ عن الهوَى، الذي يُصارُ بهِ إلَى الرِّضوان الأكبرِ والنُّزُلِ الأكرم في جنَّةِ المأوَى. فاسعوا لها – بَنِيَّ- بالعِلْم الواسِلِ إلَى قُرْبِ الله.

وحَاذِرُوا- بَنِيَّ- وأنتم في هذا المقام حَمْلَ عتادِ الدُّنيا مع ذخائرِ أعلاقِ الحَقّ، لأَنَّ مَنْ ادَّعَى وجْدانَ الحَقّ، طولِبَ بحقيقةِ الحَقّ!!، ومِنْ أبْرَهِ[2] آياتِها، وأخَصِّ خصائصها الزُّهدُ عما سوى الله، والكشْفُ[1]

١/ ق: ٢٢.

٢/ أبْرَه: أوضح، مِن أبْرَهَ: أيْ أتى بالبرهان.

بـهِ كـلَّ ماسـواه، لأن مَـنْ زَهِـدَ عَـن قُـدْرةِ- بَنــيَّ- وافتقـرَ عـن مُـلـكٍ، وتواضعَ عن حَسَبٍ، وذَلَّ لعبادِ الله عن رِفعةٍ في حِلْم وخَفْضِ جَنَاح، ولـيس فـي ذِلَّـةٍ ومَسْكَنَةٍ، أقـولُ مَـنْ زَهِدَ بهـذه الصفات،تساوتْ عنـده الدنيا مَدرُها وذهبُها.

ومَنْ أخرج حُبَّ الدنيا- بَنِيَّ- مِنْ قلبه فقد وَضعَ بقلبه في أوَّلِ درجات الصَّفاء. ومَنْ صَفَّى قلبَه – بَنِيَّ- وجَلاَّهُ كُشِفَ عنه. ومَنْ كُشِفَ عنه رأَى الأشياءَ بِبَصرِ الحَقّ كما هيَ عليه. ومَنْ رأى الأشياءَ علَى ماهي عليه لم يفرحْ بآتٍ، ولم يأسَ علَى فائتٍ، ولم يَعْلَقْ قلبُه بغيرِ الحَقّ. ومَنْ كان كذلكَ- بَنِيَّ- فهو ابنُ وقته الذي وُجِدَ فيه مع الحقّ، ووُجِدَ الحقُّ معه، ومَنْ كان ابنُ وقته لم يأتِ بغيرِ الموقوت، وما ثَمَّ موقوتٌ في وقتِ العارفِ إلا الحَقُّ، فمَنْ أتَى بالحَقّ في الوقتِ كما ظهرَ لـه، كـان الوقتُ محفوظًا به وفيه. ومَنْ حُفِظَ بهِ الوقتُ وحُفِظَ في الوقتِ كان صاحبَ الوقتِ. ومِنْ علاماته ألا يتغيَّرَ، وهل يَصحَبُ الوقتُ مَنْ يتغيَّرُ عليه ؟!. وهل الوقت إلا الدَّهرُ!. وهل الدَّهرُ إلا الحقُّ في وَجْدِهِ الجَلِيّ سـاعةَ الصَّـفاءِ فـي المَجْلَـى الجمـالي، أو الخفـاء فِـي المجلَـى الجلالي. ومادام الحَقُّ هو المصحوبُ في الوقت، فكيف يرضَى جَلالُ الحَقّ بِصُحْبَةِ مَنْ يَتغَيَّرُ عليه كُلَّ لَمْحةٍ!!؟. جَرّبْ أنت ذلك واصْحَبْ المُتغيّرَ الخِبَّ المُتَقَلِّبَّ، ولَئِنْ لم تَجِدْ في نفسِك عليه فاهْجُرني مَلِيًّا.

١/ الكشف: وهو هنا بمعنى الفرقان الذي يُفرّق به العبدُ الْمُكْرَمُ بين الحقّ والباطلِ كشفًا بعين البصيرة النافذة التي ترى الأشياءَ على ما هي عليه. كما في قولِه تعالى: في الآية ٢٩ مـن سـورة الأنفـال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾ .

٢. وثانيها رعايةُ الباطن: بحيث لا يخطرُ فيه غيرُ الحَقّ، ولا يَتحقَّقُ إلاَّ بدوام المشاهدةِ التي تُنْتِجُ صفاءَ الوَجْدِ الذي يُعطِي صِحَّةَ الإشارةِ وصِدْقَ الوَحْي.

واحذروا – بَنِيَّ – أن تقصدوا الحَقَّ برؤية النَّفسِ. لأنَّ مَنْ رأى نفسَهُ – بَنِيَّ – حُجِبَ عن الحَقّ ولا شكَّ. إذ أنَّ كلَّ قوةٍ تحجبُ ما سواها رُكُونًا وَثِقَةً في خصائصها ومُقَوِّماتِها. وعلَى ذلك فإنَّ مَنْ قَصَدَ معرفةَ الحَقّ بنفسه، حُجِبَ بها ولم يرَ الحَقَّ هنا، وإنْ رأى نفسَه في بعضِ مجالي الحَقّ.!! ومَنْ قَصدَ المعرفةَ بعقلِه المُجرَّدِ عن نورِ اللهِ، حُجِب بالعقلِ ولم يَصِلْ إلى معرفةِ الحَقّ.!! ومَنْ قَصدَ المعرفةَ بنورِ اللهِ وهَدْيِهِ بتَصْفِيَةِ قلبهِ وسُمُوّ فِكرهِ المستهدي بِهَدْي رسولِ الله القائدِ إلى معرفة اللهِ، فذلك هو العارفُ الذي سقطتْ نفسُه في عَينِهِ فقامَ الحَقُّ فيه.!! لأنَّ القيامَ بالحَقّ وفيه لا يُبْقِي في النَّفسِ بَقِيَّةً.

وبقَدْرِ رؤيتِكُم أنفسَكم فيما تأتون مِنْ الحَقّ –بَنِيَّ– يَكُنْ تفريطُكم في رعايةِ الباطنِ. لِأن النَّفسَ تميلُ إلى الظُّهورِ الذي يُنازِعُ الباطنَ الذي مِنْ طبيعتِه الخفاءُ؛ ومتى جعلتم للحقّ الباطنِ في صُدورِكم مُنازِعًا، أسأتم رعايتَه. لأنَّ الصِّدقَ في رعايةِ الباطنِ يقتضي صِدْقَ العزم في تجريد إرادةِ الحَقّ عن الأنِيَّاتِ الغَيْرِيَّةِ بقاءً بأَنِيَّةِ الله وحده تعالى. ومتى أطلَّتْ الدَّعوَى برؤيةِ النَّفسِ في تجريد إرادةِ الحَقّ وطلبهِ – أبنائي – كان ذلك إيذانًا بسقوطِ هذا الدَّعِيّ دركاتٍ في حِجابِ الرَّدِّ السُّفلي.

٣. وثالثُ مقامات الرِّعاية – بَنِيَّ – رعاية الحَقّ: وهيَ عندي مِنْ أشقّ أنواع الرِّعاية، لأنَّ مِنْ مُقوِّماتِها الأولَى العِلْمُ بمَنْ تَوجَّهَ قصدُك واستقامتْ نِيَّتُكَ وصَدقتْ عزيمتُكَ لرعايتِه، إذ أنَّ جهلَ

الرَّاعــي بِهُوِيَّــةِ وحقيقــةِ مــاكُلِّفَ برعايتِــه ضَــيا عٌ وفقــدانٌ لِمَــا استُرعِي.!!

ومِنْ أَوَّل التَّكاليفِ التـي أُمِرَ الإنسـانُ برعايتِهـا، رِعايـةُ الحَقّ إيمانًـا وعِلْمًا وعَمَلاً بهذا العِلْم. ومَنْ أضـاعَ الحَقَّ- بَنِيَّ- بِكفرهِ أو بِجهلِـه، كـان لغيره أضْيَع، ومَنْ فَقدَ الحَقَّ-بَنِيَّ- فهو المَحروب[١] الذي فقدَ الـدنيا والآخـرة فكـان مِنْ الأخسـرين أعمـالاً، الـذين ضـلَّ سـعيُهم فـي الحياة الدنيا وهم يَحسبون أنَّهم يُحسنون صُنْعًا.

فعليكم بـالعِلْم- بَنِـيَّ- لتعرفوا الحَقَّ، وعليكم برعايتـه والقيـام بـهِ، بعد معرفتة لتنالوا به مقامَ محبتِه لكم. ولا تكونوا مِن الذين تفرَّقوا عن الحَقّ مِـنْ بعـد ماجـاءتْهم البيِّنــةُ. فأَخْلِصـوا الـدِّين لله- بَنِــيَّ- أقيمـوا حقَّـه، وأبْطِلُوا باطلَـه، ولا تأخـذنَّكم فيـه لومـةُ لائـم. أقيمـوه-بَنِـيَّ- ولـو علَـى أنفسكم، لأنَّ الحَقَّ يعلو ولا يُعْلَى عليه. ولن يَتَأَتَّى لكم -بَنِيَّ- تقديرُ الحَقّ علَى الوجْهِ المُرْضِي، إلا بالمراقبة الدَّقيقةِ لِكلِّ سِمَاتِ الحَقّ بعد العِلْم بهِا.

وحَاذِروُا-بَنِيَّ- ريـاحَ الأَثَرَةِ، وزوابعَ الشَّهوات، وضبابَ الشُّبُهَاتِ، فإنَّها كثيرًا مـا تُعمِـي الأبصـار أو تُغْشِيهَا عن رؤيـةِ الحَقّ، فيَتعدَّى الإنسانُ حُدودَ الحَقّ، تسوقُه ريـاحُ الأَثَرةِ، ويضـعُ ضبابُ الشُّبهاتِ علَـى عينِـه حجابًا، ظاهِرُهُ عَفوُ اللهِ عمَّا جَهِلَ أصلَه وحُكمَه، وباطنُه وخْزُ الضَّميرِ الحَيّ بالحَقّ، الدَّاعِي إلى التَّوَرُّع والاستبراء.

فافْرُضُوا علَـى أنفسِكم مافَرَضَـهُ الحَقُّ عَلَيْكُمْ مِنْ رعايتـه، ولا تهِنُوا فيـه ولا تَغفلـوا عـن أوامـرِهِ وزَواجـرِهِ، وإشـاراتِه، ومَراميـهِ، ولـو بالإلهـامِ أو

١/ المحروب: المغبون.

التَّحْديثِ بِلمَّة المَلَكِ، فكلُّ ماجاءكَ مِن الحَقّ فهو حقٌّ، وإنْ تَعدَّدتْ وسائلُ نَقْلِهِ إليكم. فراقبوا الحَقَّ -بَنِيَّ- تُنتِجْ لكم مُراقبتُه العِلْمَ الكاملَ بهِ.

ومَنْ أُعْطيَ العِلْمَ بهِ وكان مُخلِصًا في العَمَلِ، تَفجَّرتْ ينابيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قلبهِ علَى لسانِه عطاءً مِنْ ربّكَ: ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾[1] ومَن يؤتَ الحِكمَةَ -بنيَّ- فقد أوتيَ خيراً كثيراً. ولن يبلغ أحدٌ إلى ذلك إلا برضاء الله.

الرِّضا ومقاماتُه

فلتحرصوا – بَنِيَّ- علَى استظهار مقام الرِّضا، ولايسْتَذِلُّكم الشَّيطانُ عنه وهو مقامٌ ذو ثلاثِ مَراتب:

- الأولى منها: الرِّضا بأحكام الله: وذلك بأنْ لا تتكدَّرَ ظواهِرُكم، ولا تضطرب بواطنُكم، لنازلةٍ نزلتْ مِن الحَقّ بكم. بل المرجو مِمَّنْ رضيَ بأحكام الله، استقبال نوائبِ الدَّهرِ بوجهٍ طَلْق، وروح عالٍ، ورجاءٍ في الله وأملٍ سَمْح بِحُسْنِ العاقبة، وإيمانٍ صادقٍ بحكمة الله فيما أراد وقدَّر، ليكون مِنْ عِبادِ الله ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ﴾[2].

١/ الإسراء: ٢٠.

٢/ البقرة: ١٥٦-١٥٧.

وآفةُ هذه المرتبة مِن مَراتبِ الرِّضا هيَ الجزعُ عند نوازل الحقّ وقوارعِه للابتلاء والتَّمحيص، بشيئ مِن الخوف ونقْصٍ مِن الأموال والأنفُسِ والثَّمرات، ليعلم الله المجاهدين مِنْ عبادِه وليعلم الصَّابرين.

ومادام الأمرُ اختبارًا وبلاءً، فإنَّ رؤيةَ الضَّعْفِ البشري عند المصائب داءٌ مِنْ أدواءِ الرِّضا بأحكام الله فاجتنبوه– بَنِيَّ– لعلكم تفلحون.

❖ والمرتبة الثانية مرتبة الرضا عن الله تعالى: ولن يبلغها أحدٌ منكم –بَنِيَّ– مالم يَقُمْ علَى بِساطِ البَسْطِ رضىً عنِ الحَقّ على كلِّ حالٍ أوجدَه الحَقُّ فيها؛ فلا يتمنَّى مافضَّلَ اللهُ به سِواه، ولا يُسِيئَنَّ الظنَّ بربّه، فإنَّ الله لا يحابي ولا يَستحِي مِنْ الحَقّ، فهو المحمودُ علَى كلِّ حال، لرؤيةِ الحكمةِ في كلِّ مايصنع، رغم أنَّه قد يَصُكُّ العقلَ أو الوجدان في بعض الأحايين، ولكن لاعبرةَ باصطكاك العقلِ بما لم يعلم الحكمةَ منه، ولا التفاتَ إلَى تَقلُّبِ الوجدانِ، مادام أمرُ الحقّ فوق العواطف؛ بل الأهمُّ مِن ذلك – بَنِيَّ– أنْ يَقَرَّ الإيمانُ بحكمةِ الله والرِّضَى عنه في القلبِ لِيُصدِّقَه العملُ.

واحذروا– بَنِيَّ– أن تتمنَّوا على الله الأماني؛ فإنَّ الفقيرَ ابنُ وقتِه، فأينما وَضعَهُ الحقُّ فَلْيَقَرْ، وليَسْكُنْ في رضىً، ولا يتشوَّفْ بالأماني على الله إلى مالم يدركه؛ لأنَّ في ذلك احتجاجٌ علَى الله في الحالِ الذي وضَعَكَ عليه. ومتَى نظرَ أحدُكم– بَنِيَّ– بعين النُّقصانِ إلى ماهو عليه، وطغَى بَصرُهُ إلى مالم يُوَفَّ إليه، فإنَّه قد أبْعدَ عن نفسِه الرِّضَى عن الله؛ اللهمَّ إلا إنْ كان دُعاءً في خيفةٍ، وتضرُّعًا في خشيةٍ، وسؤالاً في حاجةٍ، فإنَّ الله قريبٌ يُجيبُ دعوةَ الدَّاعِي إذا دعاه؛ أما أنْ تستبطأَ الإجابةَ وتُعلنَ السَّخطَ علَى ما أنتَ عليه، فإنَّ في ذلك

تمرُّداً على الله. ومتى ما تمرَّدتْ النَّفسُ علَى اللهِ كان ذلك آفةً تؤوفُ[١] الرِّضا عن الله. ومَنْ لم يَرضَ عن الله علَى كلِّ حالٍ فلن يضرَّ الله شيئًا، ولكن نفسَه ظلمَ. فاتقوا الله – بَنِيَّ – ولا تظلموا أنفسكم.

❖ أما ثالث مراتب الرضا فهو الرضا بالله ربًّا: ومَنْ ارتضَى اللهَ ربًّا لم يتربَّبْ سِواه ولم يعبدْ إلا إيَّاه؛ ومَنْ فعلَ ذلك فقد دخلَ بِحارَ التَّوحيد، ومَنْ دخل بحارَ التَّوحيد الحَقّ –بَنِيَّ– لَزِمَهُ أنْ يَتوَحَّدَ هو قبل أنْ يَصِلَ إلى الأحد!! لأنَّ التَّفرُّقَ في الدِّين يقودُ إلى الفشل، والسِّباحةُ في بحر التوحيد لمَنْ تعدَّدتْ أهواؤه مهْلكَةٌ. فاقصوا الأغيارَ– بَنِيَّ– عن بيتِ الرَّبِّ يَسْلَمْ لكم، وبسلامتِه يتأهلُ لِسعَةِ الحَقّ، وبإشراك غيرِ الحَقّ فيه يهجره الحَقُّ ويَدَعْهُ لمِنْ أشركتَه معه، ولن يُغني عنك الشَّريكُ مِن الله شيئًا.

واحذروا– بَنِيَّ– الشَّيطانَ وأنفُسَكم أنْ يفتنَكم عن بعضِ مانُزِّل إليكم. ومَنْ يكفرْ بالله ويؤمِنْ بالطَّاغوت فقدْ ضلَّ ضلالاً بعيدًا، ومَنْ سَلكَ سَبيلَ الضلال عن الحَقّ – بَنِيَّ– جعلَ اللهُ صدرَه ضيّقًا حرجًا كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماء. فلا تضيِّقوا صدورَكم – بَنِيَّ– باتِّباع أهوائكم، ولا تستبدلوا حياةَ السَّعادةِ مع الله بحياةٍ كلُّها فقرٌ ونَصَبٌ، يَعِدُها الشيطانُ لِمَنْ تَبِعَه.

الجواهر الأربع

وإذا قيل لكم– بَنِيَّ– افسحوا في مجالِسِكم مع الحقّ فافسحوا[١] ذلكم خيرٌ لكم؛ ولاترَوْا أنفسَكم في هذا الإفساحِ، لأنَّ رؤيةَ النَّفسِ في مقامِ

١/ تؤوفُ: تُمْرِضُ.

الحَقّ شِرْكٌ خَفِيٌّ. وكلُّ شِرْكٍ خفِيّ يُبطِلُ دعوَى الرّضا بالله. فاقتلوا أنفسَكم إنْ أردتم الظَّفَرَ برضا بارئكم ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ ﴾[2].

وأربعُ جواهرِ – بَنِيَّ – أوصيكم بها وَصاةً ترتفعُ إلى قيمتها، وأرجو منكم رعايتَها رِعايةً تليقُ بمقامِها عند الحَقّ وفيكم. والأربعُ الجواهرُ هيَ: العقلُ – والدِّينُ – والحياءُ – والعملُ الصالح. فتجنَّبوا الغضبَ فإنَّه مِغلاقٌ لباب العقلِ، وما انغلقَ بابُ العقلِ مِنْ أحدٍ – بَنِيَّ – إلا زَلَّ فذَلَّ.

واحذروا – بَنِيَّ – الحسدَ فما استَصْحَبَ إنسانٌ الحسدَ إلا سَقطتْ مروءتُه وزالَ دِينُه بحربِه اللهَ الذي لا رَادَّ لقضائِه ولا مُعَقِّبَ لِحُكمه، والحسدُ مع ذلك جِمَاعُ المآثم وأُسُّ الشُّرورِ، يُنْهِكُ صاحبَه ويَنقُضُ ظهرَ ضميرِهِ بِهَمٍّ مُثْقِلٍ وغَمٍّ مُفزِعٍ، يرى الدُّنيا فيه أضيقَ مِنْ عين البخيل! فقَدْ ضاقتْ عليه بما رَحُبتْ، فقَدِمَ إلى ما قَدَّم مِنْ عَمَلٍ، فأوْقَدَ فيه نارَ الحسدِ المتأجِّجةِ، فكانَ مِنْ الأخسرين أعمالاً، الذين يحسبون أنَّهم يحسنون صُنعاً وهم عن الآخرة هم غافلون.

١/ الإفساحُ في مجالس الحق: هو العملُ على بلوغ درجات القُرْب مِن الرَّبِّ، والتَّرَقِّي في المعارف والعلوم والآداب مع الله، دون التفاتٍ إلى رؤية النفس وهي تأخذ بأسباب الوصول والتَّرقِّي حالَ توجُّهِها وسيرها إلى باريها. وهو أيضًا يعني مَنْحَ الفُرَصِ دون مِنَّةٍ لِمَنْ استحقَّ وتأهَّلَ مِن السَّالكين طريقَ الحقِّ للدخول في حضرات القدس ومنازل الأُنس، سواءً كانوا مِن الأتباع المحبين أو سائر المسلمين مِمَّن لهم ودائع وأمانات لديكم.

٢/ البقرة: ٥٤.

وجانبوا الطَّمَعَ- بَنِيَّ- فإنَّه الفقرُ الحاضرُ، والدَّافع للتَّهجُّمِ على حُرُمات الله، والتَّوغُّلِ فيما يكره الله. وما اتَّخذَ أحدٌ الطَّمَعَ مَركِبًا إلا قادَه إلى أسوءِ العواقبِ وأوخمِ الخواتمِ، مع صلابةٍ في الوجه وغَورٍ في ماءِ الوجه يزول بهِ حياؤه، وتَحيلُ بهِ نضارتُه وغضارتُه[1].

وابتعدوا عن الغيبةِ – بَنِيَّ– فإنَّ {كلَّ المسْلم علَى المسلم حرامٌ: دمُه، ومالُه، وعرضُه}[2]. وما اتَّخذَ بشرٌ الغيبةَ حِرفةً إلا عادوا مِنْ الأخسرين أعمالاً الذين ذهبتْ أعمالُهم الصَّالحة في الحياة الدنيا لِمَنْ اغتابوهم. ثم أيُّ عَمَلٍ أشدُّ ضلالاً وأبعدُ مِن الرُّشدِ مِنْ تَرْكِ الأكلِ الصَّالِح مِن الطَّيِّبات، واستبداله بأكلِ الميتِ!! ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾[3]. فاتقوا الله –بَنِيَّ– ولا تتعرَّضوا للمسلم إلا بالخيْرِ لأنَّه: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾[4]

الجمع بين الفرض والفضل

اجمعوا – بَنِيَّ– الفرْضَ والفضلَ في أربع تبلغوا أعلى الرُّتَبِ، وأسمَى المقامات:

١/ تحيل: تغير. والغضارة: رواء الشباب وصفاؤه.

٢/ أخرج مسلم والترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً {كلُّ المسلم على المُسْلِمِ حَرَامٌ عِرْضُهُ ومَالُهُ وَدَمُهُ، التَّقْوَى ها هنا، بِحسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشرِّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلمَ}. [صحيح مسلم، ج: ٤ ص: ١٩٨٦]. و[سنن الترمذي، ج: ٤ ص: ٣٢٥].

٣/ الحجرات: ١٢.

٤/ ق:١٨.

١. إذْ أنَّ مُخالطةَ الصَّالحين والحُكماء فضلٌ؛ والاقتداء بهِم فيما يأتون مِن الأعمالِ ومايَستَنُّون مِنْ سَنَنِ حميدٍ فرضٌ.

٢. كما أنَّ تلاوةَ القرآن وترتيلَه ترتيلاً يوافق أمرَ الحَقّ فيه فضلٌ موهوبٌ؛ ولكنَّ العملَ بهِ تَحليلاً لحلالِه، وتَحريمًا لحرامِه، وتنفيذًا لأوامِرِه، واجتنابًا لنواهيه، والتزامًا بآدابه، وتَخلُّقاً بأخلاقِه، دعاءً في موقف الدعاء، وتَضرُّعًا وخِيفةً في موقف الخشية، فرضٌ يجب أداؤه، تمسُّكًا بحبلِ الله المتين وتعلُّقاً بعُروتِه الوثقَى التي لا تنفصمُ دون الحَقّ.

٣. وزيارةُ القبور - بَنِيَّ - عِظةً وترحُّمًا، ودعاءً بالخير والرحمة والنَّعيم لِمَنْ فيها فضلٌ، ينتقله الإنسان ليوازي به ذاتَه المحدثَة، في مقابلة الفرضِ للأحدِ الفردِ؛ أما الاستعدادُ لها بالعملِ الصَّالح والفعلِ الخَيّرِ والقولِ المحفوظِ عن لَحْنِ الشَّيطانِ فهو فرضٌ يجب على المسلمين أداؤه.

٤. وعيادةُ المريضِ تطمينًا له ودعاءً له بالشِّفاءِ والأجرِ فضلٌ؛ واتِّخاذُ الوصيَّةِ مِنْه فيما تَرَكَ فرضٌ.

فاجتهدوا -بَنِيَّ- كلَّ الاجتهادِ على الاستكثارِ مِن الفضائلِ والاستزادةِ مِن المعارفِ التي ترتقِي بصاحبها إلى مقام العِلْم بخَفِيّ إشاراتِ الحَقّ في الخلق، وُصولاً إلى الإيمانِ الصَّادقِ واليقينِ الجازم بقُدْرةِ القادرِ وحِكْمةِ الحَكيم.

ولا تضَعُوا- بَنِيَّ- الكلامَ إلا في مواضعِه، لأنَّ الكلمةَ إذا خرجتْ مِنْ صاحبهاوهيَ غيرُ موزونة بميزان الحَقّ والعقلِ والأدبِ ارتدَّتْ إلى

صاحبِها سهمًا قاتلاً. ولتعلموا أنَّه لا {يُكِّبُّ النَّاسَ علَى مناخرِهِمْ في النار إلا حصائدُ أَلْسنَتِهم}[1].

ومَنْ تركَ فُضولَ الكلام –بنيَّ– مُنِحَ الحكمةَ. ومَنْ تَرَكَ فضولَ النَّظرِ فيما حرَّمَ اللهُ أو كَرِهَ أو أباحَ في اقتصادٍ وتَرَكَ طُولَ الأذَنِ[2] لِمَا سِوَى الحَقّ مُنِحَ الخشوعَ والخضوعَ والورعَ. ومَنْ تَرَكَ فضولَ الطعام– بَنِيَّ– واكتفَى بالكفافِ فـي لُقيماتٍ يُقِمْنْ صُلبَه واتَّبعَ وصاةَ رسولِ اللهِ فلَمْ يملأْ بطنَه، إذ البطنُ شرٌّ وعاءٍ، فكمْ لُقمةٍ قَدْ مَنَعَتْ لُقَيماتٍ، وكمْ مِنْ شربةٍ كان فيها الفواتُ؛ واتَّبِعوا حِمْيَةَ الرَّسولِ ﷺ فهيَ الدَّواء؛ ومَنْ وُفِّقَ لها مُنِحَ لذَّةَ العبادةِ. ومَنْ تَرَكَ فُضولَ الضَّحِكِ، مُنِحَ حياةَ القلبِ. ومَنْ تَرَكَ المزاحَ مُنِحَ الهيبةَ والبهاءَ. ومَنْ تَرَكَ الاشتغالَ بعيوبِ غيرِه والتَّسقُّطَ[3] لمعايبِ سواه، مُنِحَ الإصلاحَ لعيوبِ نفسِه. ومَنْ تركَ التَّجَسُّسَ في كيفيَّةِ الله وترك المِراءَ في ذاتِ الله، مُنِحَ البراءةَ مِن النفاق. ومَنْ تَرَكَ حُبَّ الدنيا اشتغلَ بحُبِّ الآخرة؛ ومَنْ أحبَّ الآخرةَ فقَدْ أحبَّ لقاءَ الله، ومَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ الله لقاءه؛ ومَنْ أحبَّ الله

١/ أخرج الترمذي عن معاذٍ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أخبرني بعمل يُدخلُني الجنةَ ويُباعدني من النار‌وفيه: {ألا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذلكَ كُلِّهِ؟ قلت: بلى يا رسول الله! فأخذ بلسانه، ثم قال: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فقلتُ: يا نبيَّ الله! وإنّا لمؤاخَذُونَ بما نتكلَّم به؟! فقال: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يكبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وُجُوهِهِمْ، أَوْ على مَناخِرِهِم إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!!}. [سنن الترمذي، ج: ٥ ص: ١١]. وانظر: [سنن ابن ماجه، ج: ٢ ص: ١٣١٤].

٢/ الأَذَن: الاستماع.

٣/ التَّسقُّط: البحث.

لقاءَه أكرمَه، ومَنْ أكرمَه قرَّبَه، ومَنْ قرَّبه مَنَحه النَّظرَ إليه، ومَنْ مَنحه النَّظرَ إليه والقُربَى مِنْه والرِّضا عَنه، فقَدْ فاز بالرضوان الأكبر.

الدنيا دارُ غُربة ومَسيرَةُ مسافر

ثم لتعلموا – أبنائي– أنَّ الدنيا دارُ غربةٍ ومسيرةُ مسافرِ لا يَلْوِي علَى شيئ، وظِلٌّ قائلٍ[١] طليح[٢] سُرًى[٣] خفيفِ الحاذ[٤]، لا يلوي علَى شئ، قد وحَّدَ همَّه في غربةِ روحِه وجسدِه، في دارِ ليستْ لهما بِقَرارِ، وفي مَنْزلٍ يجبُ مِنْه الفِرار، وصولاً لدارِ القُرْبَى ومَقام الجِوار. فعَمِل الانسانُ العاقلُ الموفَّقُ في طاعةِ اللهِ لدارِ القُرْبَى ومقام الجوار، استجابةً لدعوة الحَقّ له بالإيمانِ الصَّادقِ الكاملِ والعَمَلِ المُشَرِّف الكريم، وفْقَ أوامرِ الله ونواهيه؛ فاتَّفقَ الغريبان وتوحَّدَ قصدُهما، وعلَتْ هِمَّتُهما، وزادَ الشَّوقُ إلى ملاقاةِ المَشُوقِ الحَقّ، الله الذي يدعو إلى دار السَّلام والحياةِ المكرَّمة العزيزة الخالدة بخلودِ المؤمِن السلام. فمالهما وداراً تكتنفُها الشُّرورُ وتُخيِّمُ عليها الوحشةُ ويُسَيْطِرُ عليها ظلامُ الجهلِ، فتنتشرُ في أجوائها روائحُ الخطيئةِ، وأبخرةُ الفسادِ، التي تَسدُّ المنافذَ مِنْ رَوْحِ الحَقّ ونسيمِه الأرج مِن الدُّخولِ إلى حنايا هذه القلوبِ الخَربَةِ العائشةِ في هذا الفسادِ؛ فليخرجا مِنْ ظلام أنفُسِهما وشرورِ سيّئاتِهما إلى نورِ قُدْسِهما وحُسْنِ مآلهما، إلى جنَّةِ القُرْبِ التي وعدَ اللهُ عِبَادَه المُتَّقين، عسَى اللهُ أن يُبدِلهما مِنْ وحشتِهما أُنسًا، ومِنْ

١/ قائل: المستريح.

٢/ طليح: نحيل.

٣/ سُرًى: السير ليلاً .

٤/ الحاذ: الظَّهر.

خوفهما أمْنًا، ومِنْ غُربتهما أهلاً وعِزًّا، ومِنْ ضلالِهما هَدْيًا ورُشدًا، ومِنْ همِّهما فرحًا وسرورًا.

ففيم الأناء[1] وَقَدْ عَلِما قُرْبَ المنزلِ وسرعةَ المُنْقلبِ، فهما يتلوان ﴿ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾[2].
ويتلوان: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾[3]. فاتفق الغريبُ مع الغريبِ علَى قطع مفازةِ الغُربةِ، الحاجزة عن دار القُربَى، عبرَ الحياة الدنيا ذاتِ المتاع القليلِ إلى جنْبِ الآخرة ذات الخير الأبقَى والنَّعيم المقـيم ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[4].

فتلاقيا في طريقِ الغربة لوجودِ النِّسبة، لأنَّ الغريبَ مِن الغريب قريبٌ. ولكنَّ الطريقَ أمامهما ذو شجونٍ وتُرَّهات[5]، تقودُ إلى أضاليل الحَيَاةِ التي تُفْضِي بمَنْ سلَكَها إلى مَهاوي الذُّل والصَّغار[6] تحت سياطِ العذابِ يوم القيامة في النَّار.

ولما كان الطريقُ إلى دارِ القُربَى بعيدَ المدَى، صعبَ المُرتقَى، كثيرَ المزالق، وهما في حاجةٍ إلى زادٍ يقطعان به هذا الطريق، وصولاً إلى

1/ الأناء: الإبطاء.

2/ غافر: 39.

3/ القمر: 50.

4/ القصص: 60.

5/ شجون وترهات: الشِّجْنة، بكسر الشين: الصَّدْعُ في الجبل، والشَّجْنُ بالتسكين واحدُ شُجُون الأَودية، وهي طُرُقُها. **والترهات:** الطُّرُق الصّغار المتَشَعِّبة عن الطريق الأعظم. واحِدها تُرَّهة. [النهاية، ج: 1 ص: 189].

6/ الصَّغار: الهوان.

ذلك الفريق، لم يَجِدَا زاداً أَخْيَرَ مِن التقْوَى، وأنجَى مِن الرجاء في الله، وأثبتَ مِن التَّمسُّك بكتاب الله، وأحفظَ مِنْ ذِكْرِ الله؛ فسارا على هُدَى الإِيمانِ فوق بُراق التوفيق، صابرَيْن علَى مشقَّةِ الطريق، يطرُقهما أحيانًا مِنْ مَصدرِ الخوفِ طارق، فتتحدَّرُ دمعاتُ الوَجلِ السَّوابق، كما يئلُّ[١] لهما مِنْ أُفُقِ الرَّجاء بارق، مِنْ سُعود المطالع فيستريحُ العاشق، وتارةً يخفِقُ لهما مِنْ عَرْفِ القَبول ونشْرِ الرِّضاء خافق، فيسكنُ القلبُ الخافقُ.

وما زالا على ذلك بين حُزُونِ[٢] وسُهول، وانتهاضِ ونشاط وقبضِ وانبساط، حتى طَوَيَا بساطَ البُعْدِ إلى جنَّة القُرْبِ، فتنسَّمَ الرُّوحُ نسيمَ رَوْح القُرْب مِنْ الأهل في مواطن العزَّة ومواقف التَّأييد، ومقامات الإكرام فتهيَّأ للفراق، فجمعَ الهمَّة في عزم على الانطلاق، فقد حرَّقَه الشَّوقُ والاشتياق، فماله بعد اليوم مِن الله مِنْ واق.

ففزعَ الجسمُ واضطربْ، وأبدَى الحُرَقَ والكُرَبْ، في احتجاج صامتٍ وإباءٍ[٣] مكبوتٍ وتَمنُّع مَغلوبِ على أمره. فخاطبَه الرُّوحُ في هدوءِ وفرحْ وبقلبِ قد انشرحْ، وبسرّ قد انفسحْ بقُرْبِ اللّقاءِ وسَعةِ الرَّجاءِ في مَنْ أعدَّ مقعدَ الصِّدق لِعِبَادِه المتقين في جنَّات النَّعيم، خاطبَه: مالي أراكَ في اضطرابْ؟ أتخشَى مِن الأهلينَ اقترابْ؟ بعد طولِ غُرْبةٍ وفراقْ؟!! ألا تعلمُ أنَّه إذا التفَّتْ السَّاقُ بالسَّاق إلى ربّك يومئذٍ المَساقْ؟!! فقال له الجسدُ وهو في هذا السِّياق، وقد بدَا علَى ظاهرِهِ

١/ يئلُّ: يلمع.

٢/ حُزُون: وحُزُن: جمع حَزْن وهو ما نشزَ وارتفع مِن الأرض وصَلُبَ.

٣/ إباء: رفْض.

الامتدادُ والاتِّساق[1]: أيها الخليل أهاهنا يتركُ الخليلُ خليلَه؟ وكيف أصبر وقد حلَّ بي ما لا يندفع بحيلة، ولا يُجدِي فيه الجزعُ والبكاءُ فتيلاً؟!! وأنَّى لي بالسَّلْوَى وقد كانت أيام الصُّحبةِ معك قليلة؟!!.

فأجاب الرُّوحُ الجَزِلُ: ليس المقياسُ بطولِ الأعمار، وإنما ببلوغ الأطوار؛ وقد خلقنا الحقُّ أطواراً. فهل قصَّرتُ بك عن طور موعود أو وَنَيْتُ بك عن مشربٍ مورود ؟! وأنا بعدُ القادمُ على المَنزل الأول الذي عليه المُعوَّل، وما أنا ممَّن يتوانَى عن دعاء الحَقّ في موطن الصِّدق إذ يقول: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾[2]. فقد أطعتُ الدَّاعي بالرُّجوعِ إليه، فهل في الرُّجعَى إلى المبدأ الأول حَرَب[3] ؟!! أم أنَّ هنالك مما قضَى الله مِنْ هَرَبْ؟. فالله مُطاعٌ غالبٌ على أمره، فلتكنْ طائعًا لسفيره إليك، ولتُنْفِذْ المألَكَة[4] لتلتحقَ بأهلكَ، ولتَسْكُنْ لأُمِّكَ في منزلٍ منه الخلقُ وإليه العودةُ ومنه المَعاد، وقد أحاطك عِلمًا به ربُّ العباد. إذ قال عزَّ مِنْ قائل في محكم تنزيله: ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾[5]. فلنُردِّد أنا وأنت شاكرَيْن أنْعُمَ اللهِ علينا: ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا

١/ الاتِّساق: استواء الأعضاء واكتمالها امتداداً.

٢/ الفجر: ٢٧-٣٠.

٣/ حَرَبْ: ثأر.

٤/ المألكة: الرسالة.

٥/ طه: ٥٥.

ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ[1] ﴿٣٥﴾ ﴾[2] .

المُرادان لا يجتمعان والحُبَّان لا يتجاوران

ثم إلى– أحْبَابِي– الذين عاشوا في الحَيَاةِ الدُّنيا ويعيشون بمنطق الزَّاهد في كُلِّ ما سوى الله، تقيُّدًا بِمِنْهاج الحَقّ الذي حثَّ عبادَه الصَّالحين إلى التعرُّف عليه في الدُّنيا قبل أن يَفِدُوا عليه في الآخرة. لأنَّ مَنْ جَهِل الحَقَّ في دنياه جهله الحَقُّ في آخرته بجهله الحَقَّ، ومَنْ نَسِيَ اللّهَ في الدُّنيا نسيه الله في الآخرة. وقد اجتمعتم –أحبابِي– في الله ذكراً ومحبةً، وصلاً وزيارةً، في تَلاقٍ وتعاضدٍ، إصلاحًا بين النَّاسِ وسعيًا بينهم بالخير وحبًّا لهم، دون تمييز أو تعلَّة[3]. لأنَّ روح السَّلام المشترك بين عباد الله المتحابّين في الله هو رَوْحُ الحَقّ الذي يربط قلوبهم ببعضهم البعض؛ ثم لن ينال السَّلامَ أحدٌ إلا بالثَّبات على الجادَّة التي لن يثبت عليها أحدٌ مالم يُقِم السَّلام في نفسه؛ ولن يقيم أحدُكم – أحْبَابِي– السَّلام في نفسه ويشيع الحب في قلبه إلا إذا سما بروحٍ عالٍ إلى الملكوت الأعلى. ولا يتمُّ سُموٌّ روحي إلى الملكوت الأعلى وفي القلبِ حُبٌّ للدنيا.

فعَلَيْكُمْ بالجِدِّ –أحْبَابِي– فإنَّ المرادان لا يجتمعان والحُبَّان لايتجاوران. فإنَّ مَنْ أراد الدنيا خالصةً أضرَّ بالآخرة ولا شكَّ، ومَن أراد الآخرة

١/ لغوب: تعبٌ وجهد.

٢/ فاطر: ٣٤–٣٥

٣/ تعلَّة : عذر.

برحمةِ الله أضرَّ بدنياه. فإيَّاكم –أحْبَابِي– والإمساك بِقَرنَيْ الدنيا مع التشبُّثِ بأذيال الآخرة، فإنَّ ما أدبرَ يُتَعذَّرُ اللِّحاقُ به إلا لِلضُّمَّرِ.

والصراط –أحْبَابِي– هو المضمار، فأحسنوا ركوبَكم فيه بتوحيدِ الأَمَم، وعُلُوِّ الهِمَم وخُلوصِ النيَّة. واحذروا الإلتفات عن الله إلى ماسواه؛ فإنَّ الله لم يجعل لرجلٍ مِنْ قلبين في جوفه.

أصدقُ الحديثِ كتابُ اللهِ وأوثقُ العُرَى كلمةُ التَّقوَى

ولتعملوا بما علَّمَكم صاحبُ السِّرار[١] والبَدَار[٢] المقرَّبُ الوسيلةُ، مَنْ يخرجُ القرآنُ رطبًا مِنْ فيه كما أُنزِل، صاحبُ السِّواك والوسَد ابنُ أُمِّ عَبْدْ[٣]، بشهادة خيرِ مَنْ أُرسِلَ – سيِّد ولدِ مَعَدٍّ – سيدنا مُحَمَّد الذكر

١/ صاحب السِّرار: من السِّرِّ، والمراد عبد الله بن مسعود ﵁ وكان رسول الله ﷺ لا يحجبه إذا جاء ولا يُخفي عنه سِرَّه.

٢/ البدار: التبكير.

٣/ روى البخاري عن علقمة أنه ذهب إلى الشام، فلما دخل المسجد قال: اللهم يسّر لي جليسًا صالحًا، فجلس إلى أبي الدرداء ﵁ فقال أبو الدرداء: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أليس فيكم، أو منكم، صاحب السِر الذي لا يعلمه غيره، يعني حذيفة ﵁ قال: قلت: بلى، قال: أليس فيكم، أو منكم، الذي أجاره الله على لسان نبيه ﷺ من الشيطان، يعني عمارًا ﵁ قلت: بلى، قال: أليس فيكم، أو منكم، **صاحب السواك، أو السرار**؟ قال: بلى. الحديث]. [صحيح البخاري، ج: ٣ ص: ١٣٦٨].

قال الحافظ: يعني بصاحب السواك ابن مسعود ﵁ وكان يتولى أمر سواك رسول الله ﷺ ووساده ويتعاهد خدمته في ذلك بالإصلاح وغيره، [فتح الباري، ج: ١١ ص: ٦٩].

وروى البخاري في التاريخ الكبير عن عمر ﵁ قال: كان ابن أم عبد صاحب السواك والوساد والنعلين ولم يكن له ضرع ولا زرع]. [التاريخ الكبير، ج: ١ ص: ٢٩٧]. وقد روى

ذو المقام الأحمد، صلواتُ الله وسَلاَمُهُ عليه. وكأنِّي به – أعني ابن أُمّ عبْد– وقد وقفَ بين صحابةِ رسولِ اللهِ، وكبارِ التابعينَ، بجسمه النَّاحِل وساقِه الدَّقيق يُرَدِّدُ فيهم، كما أُرَدِّدُ فيكم – أحْبَابِي– أنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ الله عزَّ وجلَّ الذي مَنْ تمسَّكَ به هُدِيَ ونجَا، ومَنْ ابتعد عنه ضلَّ سعيُه في الحياة الدُّنيا وما وجدَ مِنْ دون الحَقّ مِنْ نجَاء[1]، فهو حبْلُ الله المتين وعروتُه الوثقَى وكلامُه الذي لا يأتيه الباطل مِنْ بين يديه ولا مِنْ خلفه تنزيلٌ مِنْ حكيم عليم.

فاجعلوه – أحْبَابِي– هاديًا ومُرشدًا، يهديكم إلى أسلم الطُّرُقِ وأسْنَا الغايات وأفضلِ الخيرات.

وأوثقُ العُرَى –أحْبَابِي– كلمةُ التَّقوى[2]، فهيَ العهدُ بين الله ورُسُلهِ، وهيَ العهدُ بين رُسُلِ الله وعِبَادِه، وهي الكَلِمُ الطيِّبُ الذي تَنَزَّلتْ أواخيه[3] إلى الأرض مِنْ فوق عرش الحَقّ، ماتمسَّك أحدٌ بآخية مِنْها – أحْبَابِي– إلا صِعَدتْ بهِ إلى ملكوت الله في السَّماوات العُلَى. فارفعوا أصواتكم ذِكرًا بها في إخلاصِ وتجرُّدِ للحَقّ، ترتفعُ بها أرواحُكم إلى مصافّ الأصفياء، ومراتبِ المجاهدين مِنْ أحبابِ الله الصَّالحين وأوليائه الواصلين. فاحرصوا– أحْبَابِي– على ألاَّ يزال فَمُ أيّ مِنْكم رطبًا بذكر الله في كلمة التقوى، لأنَّ أهلَ كلمةِ التقوى هم أهلُ الله

مسلم عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال له: { إذنك علي أن ترفع الحجاب وتسمع سوادي}. أي: سراري. [صحيح مسلم، ج: ٤ ص: ١٧٠٨]. وهي خصوصية لابن مسعود.

١/ نجاء: ملجأ وركن.

٢/ كلمة التقوى: الكلمة التي يُتقَى بها الشركُ والعذاب–ورُويَ أنها:[لا إله إلا الله].

٣/ أواخيه جمع آخية : السَّبب والوصلة.

وخاصَّتُه، ورؤوسُ أُمنائِه مِنْ حزبه وإِنَّ حزب الله هم المفلحون. وخيْرُ المِلـل مِلَّـةُ إبـراهيم هـو سـمَّاكم المسـلمين، فحقِّقـوا المُسـمَّى فـيكم – أحْبَابِي– بنشر السَّلام على الأرض: و{المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمون مِنْ لسانه ويده}[١]، تأسِّياً بسُنَّةِ الرسول صَلَواتُ الله وسَلاَمُهُ عليه.

وخيْـرُ الهَـدْي هَـدْيُ الأَنبيـاءِ لأنهـم هـم الـذين هـداهم الله، فجعلهـم معصومين على بيِّنةٍ منه في أمرِهم، فأولئك الذين هَدَى اللهُ– أحبابي– فبهِداهم اقْتدوا. ولتعلموا – أَحِبَّائِي– أنَّ أشرفَ الحديث ذِكرُ الله، لأنَّ فـي ذِكـرِ الله طمأنينـةً للقلـب وثباتًـا علَـى الحَقِّ، وفـي طمأنينـةِ القلـوب السَّكينةُ، وفـي السَّكينةِ سُفراءُ الرحمـةِ مِنْ الله، وبسفراء الرَّحمـةِ تُذكروا فـي السَّماءِ عنـد الله مباهاةً للملائكـة بكـم. وفـي ذكـرِ اللهِ المؤمِنِ لكـم فِـي السماءِ، أجرٌ فِـي الأرض ومعرفـةٌ بـه فيكم. ومَـنْ عرفَ اللهَ فيـه– أَحبـابي– فقَـدْ تـولاَّه اللهُ ومَـنْ تـولاَّه اللهُ فهـو حَسْـبُهُ. فـإنَّ أوليـاءَ الله لا خـوفٌ عليهم ولا هم يحزنـون، وهـم {مَنْ إذا رُؤوا ذُكِر اللهُ}[٢] كمـا جـاء فـي الأثر.

١/ أخرج البخاري وأبو داود عن عَبْد الله بنَ عَمْرو رضـي الله عنهما قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: {المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى الله عَنْهُ}. [صحيح البخاري، ج: ٥ ص: ٢٣٧٩]. و[سنن أبي داود، ج: ٣ ص: ٤].

٢/ روى الطبرانـي عـن ابـن عبـاس رضـي الله عنهمـا قـال: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [يـونس ٦٢] قـال: يُـذكر الله بـذكرهم. [المعجـم الكبيـر، ج: ١٢ ص: ١٣]. قـال الهيثمـي: رجالـه ثقـات. [مجمـع الزوائـد، ج: ١٠ ص: ٧٨].

وأحسنُ القَصصِ– أحبابي– القرآنُ ففيه نبأُ ما قبلَكم وخبرُ مَنْ بعدَكم. ولْتعلموا – أحبابي– أن خيْرَ الأمورِ عواقبُها وشرَّ الأمور مُحدثاتُها. وما قلَّ وكفَى خيْرٌ مما كَثُر وألهَى، وروحٌ تُنجيه خيْرٌ مِنْ أمرٍ لا تُحصيه. وشرُّ العَذْلِ[1] حين يحضرُ الموتُ؛ وشرُّ النَّدامةِ ندامةُ القيامة؛ وشرُّ الضَّلالةِ ضلالةٌ بعد هُدَى؛ وخيْرُ الغِنَى غِنَى النَّفسِ؛ وخيْرُ الزَّاد التقوى؛ وخيْرُ ما أُلْقِيَ في القلبِ اليقينُ؛ والرَّيْبُ مِنْ الكفرِ، وشرُّ النَّدامةِ ندامةٌ عند الحَقّ بكشفِ الغطاء؛ وأضلُّ العَمَى عَمَى القلبِ؛ والخَمرُ جِماعُ كلِّ إثم؛ والنِّساءُ حَبائلُ الشَّيطان؛ والشَّبابُ . غيرُ المُتَّزنِ بِميزانِ العقلِ والحكمةِ والعدلِ . شُعبةٌ مِنْ الجنون، فقيِّدوا مارِدَهُ وأطفئوا شِرَّته[2] بحُسنِ الأدبِ وقوَّةِ الحَصاة[3] وبُعْدِ النَّظرِ، ومَنْ التزم ذلك– أحْبَابِي – سَعِدَ في شبابِهِ بصحبةِ العقلِ الواعي المُدرِك لأهدافه وغاياته، دون لَبْسٍ يَهِدُّ القُوَى ويُحطِّمُ الإمكَانَات المتاحة للشباب، في سبيل السعادة والحَقِّ المفضي بأهله إلى الخير في الدنيا والآخرة.

وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: {أولياء الله تعالى الذين إذا رُؤوا ذُكِر الله تعالى}. قال الحكيم: أما الذي يذكرك بالله رؤيته فهم الذين عليهم من الله سمات ظاهرة قد علاهم بها نور الجلال وهيبة الكبرياء وأُنس الوقار فإذا نظر الناظر إليه ذكر الله لِمَا يرى من آثار الملكوت عليه فهذه صفة الأولياء. [نوادر الأصول، ج: ٢ ص: ٤٠]. وانظر: [فيض القدير، ج: ٣ص ٤٦٨].

١/ العذل: العتاب.

٢/ شِرَّته: حِدَّته.

٣/ الحصاة : العقل.

ومِنْ النَّاس– أحْبَابِي– مَنْ لا يأتي الجمعةَ إلا دَبْرًا[١] ولا يذكر الله إلا هَجْرًا[٢]. فهؤلاء مَنْ أدبرَ الحقُّ عنهم وهجرَهم، فإيَّاكم وهجْرانَ الحَقّ والإدبار عنه؛ فوالله لا يُنالُ ممَّا عنده إلا به، فكلُّكم عائلٌ إلا مَنْ أغنَى، وكلُّكم ضالٌ إلا مَنْ هدى، وكلُّكم مَفتونٌ إلا مَنْ رحمَ. فاتقوا الله –أحْبَابِي– تُقاةً تنأى بكم عن مُلابسةِ[٣] حُرماتِ الله أو مُقاربةِ مَناهيه، واتقوا مع ذلك حَرَم المؤمنِ فإن سبابه فسوقٌ وقتاله كفرٌ.

وإيَّاكم – أحْبَابِي– واللَّبْسَ[٤] في الرِّزق فإنَّ العَرقَ جزءٌ مِنْ الإنسان، وحَرِيٌّ بمالٍ أتَى بالجهد والكدِّ أن يكون حلالاً، ترتفعُ به النَّفسُ مِنْ حضيض المسألةِ، ويَترقْرَقُ به ماءُ الحياءِ علَى الوجهِ نَضِرًا جميلاً. فانتشروا– أحْبَابِي– في الأرضِ وامشوا في مناكبها، وكلوا مِنْ رزقه،

١/ {لا يأتي الجمعة إلا دَبْراً}: بالفتح وبالضم، منسوب إلى الدَّبْرِ آخر الشَّيء، أي أنه يأتي الصلاةَ حين أدْبَرَ وقتُها. و{لا يذكر الله إلا هجراً}: قال المناوي: أي تاركًا للإخلاص كأن قلبه هاجر للسانه.

٢/ قوله: [إن أصدق الحديث كتاب الله] إلى قوله: [ولا يذكر الله إلا هُجْرًا] فهو من قول ابن مسعود رضي الله عنه كما رواه عنه أبو نُعيم في الحلية، ج: ١ ص: ١٣٨]. وابن الجوزي في صفوة الصفوة، ج: ١ ص: ٤١٠]. وأخرجه البيهقي في الدلائل عن عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً.

٣/ ملابسة: التَّلَبُّسْ بالمقارفة والارتكاب.

٤/ اللَّبس: الشُّبهة.

وابتغوا ما كتب الله لكم، ولا تقعدوا عن طلب الرِّزق. وخيْركم مَنْ أكل مِنْ عَمَلٍ يده، لأنَّ فيه الشَّرَفُ والعِزَّةُ والكرامَةُ.

وإنْ ذلَّ أحدُكم – أحبابي– في طلبِ الرِّزق وسأل، فلْيَسألِ اللهَ الذي بيده الخيرُ ومفاتيحُ الوجود.

واللهُ يَغضبُ إنْ تركتَ سؤالَه وبُنيُّ آدم حِينَ يُسألُ يَغضبُ[1]

فاطلبوا الرِّزقَ – أحْبَابِي– بمرضاة الله وبالرَّحمةِ بعباد الله، فإنَّ في معصيةِ الله والقسوةِ علَى عبادِ الله مَشقَّةً في الرِّزقِ وضنكًا في المعيشة.

وحَاذِروا– أَحبابي– اشتعالَ فتيلةِ الغضبِ في الصُّدورِ، فإنَّها حارقةٌ، واجعلوا مِنْ صُدورِكم بِحارًا لإطفاء جُذَى[2] الغضبِ وشَرَرِ الانتقام. وادفعوا السَّيئةَ بالحَسَنَةِ تفلحوا؛ فإنَّ مَنْ يَعفو يَعْفُ اللهُ عنه، ومَنْ كظمَ غيظَه لله آجرَهُ اللهُ، ومَنْ غفرَ للمسلمِ زَلَّتَهُ في الدنيا غفرَ الله له زلَّتَه

١/ روى البيهقي في الشعب عن محمد بن حاتم قال قلت لأبي بكر الوراق: علمني شيئًا يقرّبني إلى الله تعالى ويقربني من الناس، فقال: أما الذي يقربك إلى الله تعالى فمسألته، وأما الذي يقربك من الناس فترك مسألتهم. ثم روى عن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: {من لم يسأل الله يغضب عليه}. ثم أنشد . يعني أبا بكر الوراق:

والله يغضب إن تركتَ سؤاله وبني آدم حين يُسأل يغضب

[شعب الإيمان، ج: ٢ ص: ٣٥].

وينشد معه بيت قبله:

لاتسألنْ بني آدم حاجةً وسَلْ الذي أبوابُه لا تُحْجَبُ

٢/ جُذَى: جمع جَذوة، والجَذْوَةُ بفتح الجيم وضمها وكسرها: الجمرة. قال مجاهد في قوله تعالى: {أو جَذوةٍ من النار} أي قطعة من الجمر. [مختار الصِّحاح، ص: ١١٩].

فـي الآخـرة. ولا تُنكِرُوا أيَّـامَ اللهِ[١] -أحْبَـابِي- فـإنَّ لـربّكم تَجلّيـات، وإنَّ لأحـوالكم تقلُّبـات، تَتَشـيَّأ[٢] وِفْـقَ أمـرِ الله وقضـائه. والرضـاء بالقضـاء يُكسِبُ الصَّبرَ، ومَنْ صَبرَ علَى رَزِيَّةٍ أعقبَهُ اللهُ خيرًا.

اللهُ أحقُّ بالحياءِ منه مِنَ النَّاس

وتجنَّبوا – أحْبَابِي- حزائزَ[٣] القلوبِ ومَحاجِمَ[٤] الصُّدور، وإنْ حزَّ فـي قلـوبكم شـيءٌ فَـدَعُوه وإنْ سـالَ لـه اللُّعـابُ إغـراءً وتَقطَّعـتْ فيـه الأنفاسُ طلبًا؛ فإنَّ {الإثمَ ماحاكَ في الصَّدرِ وكَرِهْتَ أنْ يطَّلع عليه النـاسُ}[٥].

والله أحقُّ بالحياءِ مِنْهُ مِنَ النَّاسِ، فلا تعَمَلْ خاليًا ما تترَفَّعُ عن فِعْلِه بين النَّاسِ؛ ومَنْ رَاءَى[٦] اللهَ بالنَّاس فقَدْ هلَكَ. فإن ذا الوجهين حَرِيٌّ بهِ أن لا يكون عند الله وجيهًا.

ولِيَرْدُدْكُمْ عن النَّاسِ – أحْبَابِي- ما تعرفونَ عن أنفسِكم، فلا تجِدُوا[١] علـيهم فـي مـا تـأتون بـهِ؛ وكفـى بكـم عَيْبًـا أن تعرفـوا عـن النَّـاسِ مـا

١/ أيام الله: شئون الله وما يُبديه في الكون {كلّ يومٍ هو في شأن}.-لأنَّ شئونه جلَّ شأنه تظهر للعباد عبر الأيام.

٢/ تتشيأ: تصير شيئًا.

٣/ حزائز: وجعٌ في القلب من غيظٍ ونحوه.

٤/ محـاجم : جمـع مِحْجَـمْ وهـو آلـة توضَـع علـى الجسـم فتهيّجـه وتجـذِبُ الـدَّمَ أو المـادة بقوة.-واستُخْدِمَتْ الكلمـةُ هنـا بمعنـى مـا يُهيِّجُ الصُّـدورَ ويثيـرُ انفعالَهـا ويوقِدُ العواطـفَ ويؤجِّجُها.

٥/ أخرجه مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه [صحيح مسلم ج: ٤ ص: ١٩٨٠].

٦/ رَاءَى : سلكَ سبيل الرّياءِ في تعامله مع الله.

تجهلون عن أنفسِكم، فإنَّ السَّعيدَ مَنْ وُعِظَ بغيره. وتدبَّروا ودبِّروا في صَبرِ وحِلْم وأناةٍ ورِفْقِ، فإنَّه والله تمامُ العقل. و{ماصَحِبَ الرِّفْقُ عَمَلاً إلا زانَه}[2].

فكُفُّوا – أحْبَابِي– عن مَحارِم الله تَلْبسوا الوَرِعَ حُلَلاً. واستشْعروا[3] وتَدَثَّروا حُسنَ الخُلقِ، فهو والله الحَسَبُ المُقيمُ الذي لا يَغْتَرِبُ[4] صاحبُه قط. واعلموا – أحْبَابِي– أنَّ ذروةَ الشَّرفِ وعُلاهُ الإسلامُ. فاتقوا الله ولا تَموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون.

واجعلوا دارَ الكَرَم في ربوعِكم عامرةً، فإنَّه اللِّسانُ الصَّادقُ في الآخرين؛ ولقد خَبِرتُ الكَرمَ فلم أجِدْ أعَزَّ ولا أكرمَ مِنْ التُّقَى، فإنَّ مَنْ ظَلَفَ[5] نفسَه عمَّا تُحِبُّ وآثرَ ما عند الله رغْمَ خصاصتِه[6] له لَهُوَ الكَريمُ حقًّا. وإيثارُ الحَقّ علَى النَّفسِ مَرتبةٌ ساميةٌ مِنْ مَراتبِ الإيثار، لا يبلغُها إلا مَنْ وَفَّقه اللهُ. فاجتهدوا– أحْبَابِي– لبلوغ مرتبةِ إيثارِ الله على الأنفُسِ.

١/ فلا تجدوا: الكلمة هنا بمعنى فلا تغضبوا. أيْ لا تغضبوا من الناس على فعِلٍ أنتم تفعلونه.

٢/ أخرجه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها. [صحيح مسلم، ج: ٤ ص: ٢٠٠٤].

٣/ استشعروا : من الشِّعَارِ وهو ما لامَسَ الجسمَ مِنَ الثيابِ.

٤/ لا يغتربُ: لا يَشعرُ بالغُربةِ.

٥/ ظلف: منع.

٦/ خصاصته: حاجته.

الورعُ عقلٌ حَريزٌ والتوبةُ شفيعٌ ناجحٌ

ولا تكوسوا[1] –أحْبَابِي– في أمورِ الدنيا فإنها أقلُّ مِنْ ذلك. واعلموا أنَّ الورعَ عقلٌ حَريزٌ[2] والتوبةُ شفيعٌ ناجحٌ. ومَنْ اقتصرَ منكم على بُلْغة الكَفاف فقَدْ انتظم الرَّاحةَ. فإيَّاكم والبِطْنَة فإنَّها مُذهبةٌ للفطنة مجلبةٌ للداء، وعليكم بحِمْيَةِ الرسول صلواتُ الله وسَلاَمُهُ عليه فإنه قال: {ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شرًّا مِنْ بطنه، بِحسْبِ ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صلبَه، فإن كان لابُدَّ فاعلٌ فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابِهِ وثلثٌ لنَفَسِه}[3] فإنَّ الثُّلثَ– أحْبَابِي– لِكلِّ عُنصرِ مِنْ عَناصرِ الحَيَاةِ لَقِسْمةٌ عادلةٌ ونصيبٌ أوْفَى.

وإيَّاكم – أحْبَابِي– والرَّغبةَ الجامحة التي لم تُقيِّدها ضرورةٌ ولم تطلبها حاجة، فإنَّها مِغلاقٌ لباب الرَّاحة والاطمئنان، تفتحُ كلَّ يوم بابًا لا يُغلَق مِن التَّعب والنَّصبِ.

وتجنَّبوا –أبنائي– الحِرصَ فإنَّه فقرٌ حاضرٌ وبَرْقٌ خاترٌ[4] يضيئ غرابيبَ[5] الأملِ المعتمةِ بنار الشيطان اللامحة، فيتهجَّمُ الحريصُ مع طولِ الأملِ في الذُّنوب مُتَعدِّيًا حدودَ الله في شَرَهٍ ضريرٍ جامعٍ

١/ لا تكوسوا: مِن الكياسة وهي العقل والحذق.

٢/ حَريز: حصين.

٣/ رواه أحمد والترمذي والنَّسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن. [جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ج: ١ ص: ٤٢٤].

٤/ خاتر: مخادع.

٥/ غرابيب: السُّود الحوالك.

لمساوئ العُيوب، لا يدري أنه رُبَّ طمع كاذبِ وأملِ خائبِ يؤدِّي إلى الحِرمان، وأرباح تؤولُ إلى الخُسرانِ.

وإذا عجزتم – أحْبَابِي – عَن فعل الخير لكم ولغيركم، فلا يعجزنَّكم أنْ تَضْعُفوا عن الشَّرِّ. ولتعلموا أنَّ كلَّ مالم يكنْ في سبيل الله أو في سبيل العَيْشِ الحلالِ فهو شَرٌّ لن ينجو مِنْه إلا مَنْ باتَ في حِرْزِ الله وأمانه.

أتدرون ما حِرْزُ الله وأمانُه؟! إنه الذِّكْرُ!، فإن لم تحصوه فعَلَيْكُمْ بالنوم. فإذا تاقتْ نفسُ أحدِكم إلى الشَّرِّ ولم يكنْ في ذِكرِ الله بالقوة التي تحميه مِنْ كيدِ الشيطانِ، ولم يقوَ على السَّيطرة على قُوَى الغَضَبِ فيه، ونفخَ الشيطان فيه فاستخفَّه إلى الشر فلينم وإلا فليتناوم!! فإنَّ النَّائمَ مَرفوعٌ عنه القلمُ، والمُتناوِمُ مَعفُوٌّ عمَّا يجولُ في صَدرِهِ مالم يُصدِّقهُ بقولٍ أو بفعلٍ.

ولا يَجْرمنَّكم[١] شنآن[٢] قوم إذا وقعتم في طين الرَّذيلةِ ووَحَلِ الفاحشةِ ألاَّ تخرجوا مِنْه، فإني رأيتُ كثيراً ممنْ إذا وقعَ فيما تَحرَّز مِنْه خاضَ فيه كَأنْ قَدْ أَمِنَ الدَّنسَ، أو رَجَا الزَّكاة[٣] ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾[٤] وراجعوا الحَقَّ في أنفسِكم إنْ زلَلْتُم عنه، وضَعوهُ

١/ يجرمنكم: يكسبنكم–يقال جَرَمَ ذنبًا أيْ كسبه، وأجرم اكتسب الإثمَ.

٢/ شنآن: الشنآن البُغْض.

٣/ الزكاة: الطهارة.

٤/ النور: ٢١.

في مَصافِّه في أنفسكم، وتعهَّدوه بالمراجعة إنْ تَخطَّيْتُموهُ، فإنَّه قَديمٌ لا يَخلَقُ[1] على كَثْرَةِ رَدِّه ودَفْعِه.

إيَّاكم أنْ تَطْعَمُوا مِن نهر طالوت

وإيَّاكم – أحْبَابِي– أن تطعموا مِن نهرِ طالوت[2]! فإنه نهر البلاء والابتلاء ومازال ماثلاً في دنياكم التى استعبدت كثيراً مِنْ الناس فرتعوا فيها حتى نسوا الله فأنساهم أنفسهم فسَدروا في غَيِّهم، يأكلون كلَّ ما تَقعُ عليه أعينُهم، دون أن يُمَيِّزوا الخبيثَ مِنْ الطيِّبِ، يَحتجُّون أنَّهُ مِنْ طيِّباتِ الحياةِ التي أخرج الله لِعِبَادِه، ويجهلون في ذاتِ اللحظة أن مِنَ الرَّبيع[3] ما يقتل حَبَطًا[4] أو يُلِمُّ[5] وهذا مثل الدُّنيا والرَّاتعين فِيهَا، فإنَّها خضرة نَضرة، ما رتعَ فيها إنسانٌ دون رَويَّةٍ وأناةٍ وتَبصُّر إلا أوردتْه مواردَ الهلاكِ، وقعدتْ به مَركبتُها عن اللِّحاقِ بمَن خَفَّ في السَّفر إلى الله، فشُغِلَ عن حَمْل الدنيا مُستعيضًا بما يحمِل لله مِنْ تقوى، وخيْرُ الزَّاد المحمولِ التقوى.

١/ لا يَخْلَقُ : لا يَبْلَى.

٢/ نهر طالوت: نهر طالوت في القرآن جاء ذِكْرُه في الآية "٢٤٩" من سورة البقرة وهو يعني هناك كما قال المفسرون: {هو نهر يقع بين الأردن وفلسطين ومعروف باسم نهر الشريعة. ومنعَ طالوتُ جنودَه قبل أن يخوضَ بهم غِمارَ الحرب أن يشربوا من هذا النهر، اختبَارًا لإرادتهم وطاعتِهم }. وواضحٌ أنَّ الشيخَ رضي الله عنه أشارَ به هنا إلى معنى الدنيا وزينتها وزُخْرُفِها الخادع للعبد من أنْ يُخْلِصَ توجُّهَهُ لربِّه.

٣/ الربيع: ما تَعتلفُه الدَّوابُّ مِن الكَلأ والْخُضَرِ.

٤/ حبطًا: انتفاخاً.

٥/ يلم: يقارب.

والمكثرون في عَمًى وحِرْصٍ وشُحّ وبُخْلٍ مِنْ خيرات الدنيا، يتجاهلون أنَّهم مُستخلَفون في هذه الدنيا، ولا يجوز لهم التَّصَرُّف فيها إلا بإذن سيِّدِهم الذي اشترَى منهم أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنَّة، فتَلَهُّوا أمامَ مُغريات الحَيَاةِ عن هذا البيع الرَّبيح، وتناسوا هذا الشِّراءَ الذي أُغْلِيَتْ سلعتُه، يستبدلون بالنَّفيسِ الغَالي الحَشَفَ[1] والفتيل والعِفاطة[2]، ويجعلون مِن الدنيا المستخلَفين عليها والمأمورين بإنفاقها في مراضي الله صيداً ينصبون له مِن الأحابيل ما يعجز عنه الشيطان أحياناً، ولئن أدركوا هذا الصَّيدَ بأيِّ وسيلةٍ فهو الغُنْمُ الذي لا عُتبَ فيه، واللَّذةُ التي لا تَعدِلُها لَذَّة. يفعلون كلَّ ذلك وقد فاتَهم مثلٌ يُضرَبُ لِمَنْ تكالبوا على الدنيا فأصابَهم سُعَارُها حتى غدوا كلابًا لا يُرجَى نائلُهم ولا يُؤمَن عواؤهم، وقد يثبون إليك إيذاءً وطعنًا؛ فهذا مثل الدنيا عند مَن جعلَها شُغلَه الشَّاغل.

أما الدنيا عند المؤمِن فهيَ ملك لله، يستعمرُ فيها عبدَه ليُقْرِضَها له قرضًا حَسنًا ولا يستأثر لنفسه شيئًا؛ لأنَّ كلَّ ما استأثرَ به العبدُ على ربّه فهو حرامٌ على الرَّب!! ألا ترَى أنَّ الكلبَ المُعلَّم إذا طَعِمَ مِنْ صَيْدِ سيِّدِه حَرُمَ ذلك الصَّيدُ على صاحبِ الكلبِ!! وصاحبُ الكلبِ لا يَنْسَى كَلبَهُ مِن التَّغذية والتَّعهُّدِ والرِّعايةِ متى ما جاءَ له بالصَّيدِ دونَ أنْ تتوقَ له نفسه.

فإذا كان الكلبُ يُؤتَمَنُ على الصَّيدِ فَيؤدِّيهِ لسيّده كاملاً واثقًا مِنْ أنَّ سيِّدَه لن يُضيِّعَه وهو يكْدَحُ له، فكيف تَفقِدُ الثِّقةَ في سيّدِك الذي له مُلكُ السَّماوات والأرض بالرِّزقِ وَقَدْ ضَمِنه لَكَ ؟!! وأنت بَعْدُ الإنسان

١/ الحشف: أردأ التمر.

٢/ العفاطة: ما يخرج من أنف المعز حين عطسها.

الـذي اسـتُخلِفَ فـي الأرض- لكَمَـالِ نشـأتِهِ وتشـابُه جمعيّتِـهِ بجمعيَّـة الحَـقِّ[1]- للوصـول إلـى الكمـالات التـي تُظهِـرُ كمـالَ الحَـقِّ بتنفيـذِ مُسمَّيات الأسماءِ فـي الكون؛ إذ أنَّـه بِقَدْر الإكثار فـي إظهارِ هذه المُسمَّيات يَكُنْ الكمالُ الإنساني. فإنْ كـان الحـقُّ هو (المؤمِنُ – المهيمِنُ – السَّلام)، فأيْنَ فاتَكَ هذا الإيمانُ وأنت عبد الله ؟!! ولماذا فاتكَ السَّلامُ وأنت تحت نظرِ السَّلام؟! هل ياتُرَى سَمَا الكلبُ روحيًّا!! أَمْ هَوَى الإنسانُ إلى درك الأنعام بل أضلّ سبيلاً ؟!!

واضحٌ أنَّ الإنسان قَدْ هوَى عن مكانه السَّابقْ، يومَ نظرَ تحت قَدَميْهِ فلم يَرَ إلا ظِلَّهُ، فاعتقد أنَّ الحياة كلَّها ظلٌّ له!! ناسيًا أنَّ الحياة هِيَ كلامُ اللهِ المُترجَم إلى فعلٍ. وكلامُ الله لا يأتيه الباطلُ مِنْ بين يديه ولا مِنْ خلفه. لأنَّ الحياةَ قد خُلِقَتْ بالحَقِّ، وما كان بالحَقِّ ومِنْ الحَقِّ فهو حقٌّ. ولَكَنَّ الظِّلَّ النَّفسي قَدْ يحجبُ هذا الحَقَّ كثيراً. ولو أدار صاحبُ الظلِّ النَّفسي الحاجبِ للحقّ وجهَهُ يَوْمًا واحداً للحقيقةِ التي أعطاها ظهرَه يومَ أَلَّتْ[2] عليه بروقُ المطامع مِن النَّفسِ، ولَمعتْ له بوارقُ الشَّهوات، وتَرَكَ الحقيقةَ واتَّبعَ السَّرابَ الذي حَسِبَه ماءً، حتى إذا جَاءَه لم يجدْهُ شيئًا، ووجدَ اللهَ عنده حاسبًا وَقَديراً، فأدرك الحقيقةَ التي أعطاها ظهرَه دهراً، وعَلِمَ ساعتَها أنَّ شمسَها ناسخةٌ لكلِّ ظِلٍّ، مهما كانتْ ضخامةُ هذه الظِّلالِ وعظمتها.

١/ جمعيَّة الحقِّ : إشارة إلى مجموعِ صفات المعاني من صفات الله جلَّ عُلاهُ والتي هيَ:[القدرة –والإرادة –والعلم –والحياة –والسمع –والبصرُ –والكلامُ]، والتي تُشَكِّلُ في مجموعها صورةَ الرحمن والتي خلق الله على صورتها–أيْ علَى صِفَتِها– عبدَهُ الإنسان.كما جاء في الحديث الصحيح.

٢/ أَلَّتْ : بَرَقَتْ.

وهكذا الأمرُ بدؤه عماءٌ[1]، وختمُه فناءٌ[2]، ونهايتُه بقاءٌ[3] مَنْ لم يكن ببقاء مَنْ لم يَزَل، بقاءً يُقيمُ الرُّوحَ الإنساني على جادَّة سبيل الحَقّ، عِلْمًا وهُدًى ومناراً للسَّاري في طريقِ الحَقّ، تعشو[4] إلى ضوئِه النُّفوسُ التي أضناها العَناءُ فوجدتْ فيه الهُدَى والخيرَ والرَّحمةَ بوَجْدِ الله.

العِلَلُ مُجازاةٌ يأنسُ بها أهلُ الصَّفاءِ والهِمَمِ والضِّياء

فعَلَيكم –أحْبَابِي–بالصَّبرِ في كلِّ بأساءَ وضَرَّاء، فإنَّ الصَّبرَ روح الحَقّ الذي يُثَبِّتُ بهِ الفؤادَ ويربط به على القلوب، فلا يَجِدُ صدَى المصيبةِ ولا ضوضاءُ الحربِ النَّفسي بِخَيْلِ إبليسَ ورَجِلِه منْفذاً يَلِجُ بهِ هذا القلبَ المربوط بالصَّبرِ.

١/ عَمَاء: العماءُ هو مرتبة وجود الذات الإلهي الأقدس قبل تنزُّلِها لمراتب التعريف الأسمائية والصفاتية والفعلية. وسبحان الله جلَّ شأنه، مِنْ حِكمته سترَ ظهورَ الذات بحجاب مظاهرِ الصفات، واختفَى بما به ظهرَ مِن الكائنات، وغابَ بما به حضرَ وحاضَرَ مِن التَّعرُّفات. والسعيدُ مِن العباد مَنْ نفذَ مِنْ حجاب الكونِ لمشاهدة الْمُكَوِّنِ عبرَ تأمُّلِه وتدبُّرِه سطورَ الكائنات.

٢/ فناء : هو التلاشي والعدم، وهو فناء معنوي: وهو تلاشي وانعدامُ أفعالِ وصفاتِ بل ووجودِ العبد –المجازية– في وجود واجب الوجود الحق جلَّ عُلاهُ، يتأهَّل بعدَها العبدُ للفوز بمحبة الله له فيبقَى بصفات ربه الباقي جلَّ شأنه، وهو البقاءُ الحقيقي المعنوي،كما جاء في الحديث الصحيح[...فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمع به...الخ.]؛ وهي معاني يبلغ بها العبدُ درجةَ كمالِ العبودية الصِّدْقِ للرُّبوبية الحق.

٣/ بقاء: وما عناهُ الشيخ ﷺ هنا هو البقاء الحقيقي المعنوي الذي تمتْ الإشارة إليه أعلاه في معنى فناء.

٤/ تعشو: تقصد.

فاصبروا – أحْبَابِي– وصابروا في حربكم النَّفسَ والشَّيطانَ، واتقوا الله، واذكروه ذكراً كثيراً لعلكم تفلحون. ولا تشكو اللهَ لعِبَادِه فإنَّه ما أصابَ مِنْ مصيبةٍ فبإذن الله ويعفو عن كثير. والعائدُ داع فلا تحُكِّمْه بشكوَى الله لأنَّ في تحكيمه تنازعٌ للرُّوح يُضْعِفُ هذه الدعوة عن التَّحليق فوق سماءِ الملَكوت. ولن ينتفعَ مريضٌ يشكو الله بعيادة أخيه المسلم له.

فاشكوا بثَّكم وضُرَّكم إلى الله واستعينوا به وبجاه المقرَّبين عنده لكشفِ هذا الضُّرِّ، فالطبيبُ أداةٌ مِن أدوات الحقّ لإزالةِ الضُّرِّ في العالم المَحسوسِ، والقريبُ مِنْ الله البَرُّ أقربُ أداةً وأسنا عَمَلاً في شفائك، والكلُّ مِن الله. فالدعاءُ دواءٌ مشروعٌ يشفي به الله كُلَّ الأمراض، فلا تقنطوا مِنْ رحمة الله وادعوا الله تضرُّعًا وخيفةً، في صفاءٍ وخُلوصِ نيَّة، وذِلَّةٍ مَشوبة بالرَّجَاءِ يكشفُ به الحَقُّ كلَّ ضُرّ.

وما دام الضُّرُّ بإذن الله فإنَّ دواءَه هو إذنُ الله بالذهاب وبالبُرْءِ: ﴿ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ ﴾[1] ومنْ تلقَّى إذنَ الحَقّ في المصيبة بالرّضا والقبولِ كان الله معه وإنَّ الله مع الصابرين﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ﴾ فبشِّرْهم بِحُسْنِ العاقبةِ وحُسْنِ الخَلَفِ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2]

واعلموا– أحْبَابِي – أن العِلَلَ[3] مجازاةٌ يأنسُ بها أهلُ الصَّفاء والهِمَم والضِّياء. ومَنْ لم يَعُدِّ البلاءَ نعمةً فليس مِنْ الصِّدقِ في حُبِّه لله

١/ الشعراء: ٨٠

٢/ البقرة: ١٥٥–١٥٧

٣/ العِلل: جمع عِلَّة وهو المرض الشاغل.

بمكان. والله يبتلِي عبادَه بما شاءَ ليعلمَ الصَّابرَ الحديدَ في هِجْرَتِه إليه مِنْ المُخَاتِرِ المائق[1] الذي يَنقلِبُ على عَقبَيْهِ كلَّما طرقَه الحَقُّ بطارقِ ابتلاءٍ واختبارٍ؛ وهو يجهلُ أنَّه بِطَرْقِ الفُخَّارةِ الإنسانيَّة تَتبيَّنُ الأخلاقُ الباطنيَّة.

فاسكنوا عبادَ الله لِحُكم الله تحتَ مَجاري القَدَرِ، وارجُوا مِن الله الخيْرَ ولا تَكْرَهوا اللهَ، وأحبُّوا لقاءَه إنْ كان ثمَّةَ إحمام[2] للقَدَرِ، فإنَّه والله الشَّفيقُ عَليكم وبكم، ومَنْ لمْ يأمَنْ الشَّفيقَ علَى نفسِه فقَدْ أمِنَ أهلَ التُّهَم علَى أمرِه، ومَنْ وكَلَ أمرَه لغيرِ الله فقَدْ هلَكَ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3] فمَنْ نازعَه الخلقَ كُلِّفَ بالقيام بما خَلَقَ وما هو بمستطيع ذلك، ومَنْ شاركَه الأمرَ دون إذنِ مِن الله فقَدْ باتَ يخونُ أمانةَ الله، ومَنْ باتَ خائنًا للأمانةِ، باتَ الحَقُّ ساخطًا عليه يَسْلُبُهُ ماعندَه ويَحْرِمُه المزيد ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾ فلا تُنازعوه الأمرَ فهو وحدَه الفعَّالُ لِمَا يريد.

القَرابةُ إلى المَودَّةِ أحوجُ، مِن المَودَّةِ إلى القَرابة

اعلموا- أحْبَابي- أنَّ التَّوادُدَ فيما بينكم مَئِنَّةٌ[4] بتقويةِ عُرَى الإخاءِ والمودَّة. واستوصوا بأبنائكم خَيْراً فقَدْ يكون الولدُ بِزَمَنِهِ أشبهَ منه بأبيه، فلا تَحْمِلوهم علَى أنْ يكونوا نُسَخًا مِنكم؛ فإنَّ أصابعَ اليدِ الواحدة

١/ المخاتر: المخادع. والمائق: الضعيف العزيمة.

٢/ إحمامُ القدَرِ للأمر: قضاؤه الأمرَ وإبرامُه له في حَزمٍ وشِدَّةٍ.

٣/ الأعراف: ٥٤.

٤/ مَئِنَّة : علامةٌ دالة . ومنه قولُه ﷺ : {إنَّ طولَ صلاةِ الرجل وقِصَرَ خُطبتِه مَئِنَّةٌ من فِقهه، فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة}.

مختلفةٌ، وفي اختلافها إيذانٌ بعدم تكرار النُّسخةِ الإنسانية بما يُشبه الآخر؛ بل كلُّ إنسانٍ يُمَثِّل شخصيَّةً قائمةً بنفسها لها مِن القوانين الحَقِّيَّةِ والغرائز الإنسانيَّة المُهذَّبة بنورِ الإيمان والخلائق الرَّحمانية المُودَعَةِ في البِنْيَةِ الإنسانيَّة ما يسمو بها إلى مَصَافِّ الكمال.

فلا تَغضبوا – أحبَّائي – علَى أبنائكم غضبًا يَهدُّ فيهم قواعدَ الاحترام ويُزَلْزِلُ أركَانَ الثِّقَةِ بينهم وبينكم؛ ولا تنبذوا لهم عن سواء[١]، فإنَّ المَودَّة قرابةٌ آصِرَةٌ[٢]، والقَرابةُ إلى المَودَّة أحوجُ مِن المودَّة إلى القرابة. فالنَّاسُ قَدْ يَتَوادُّون ويَتحابُّون فيما بينهم دون ما رَحِم، وَقَدْ يتدابرون ويتقاطعون والرَّحِمُ ماسَّةٌ.

فاحذروا مُصَارَمةَ أبنائكم وأقربائكم، فإنَّ المُصارِمَ لا يَجِدُ رِيحَ الجنَّةِ كما جاءَ في الأثر: مَنْ بات مُصارمًا لأخيه المسلم غَضِبَ الله عليه ولم ينظر إليه ولم يُكلِّمه وله عذابٌ أليمٌ.

واحذروا – أحْبَابي– سَبْقَ الخواطرِ على عبادِ الله دون الخَبَرِ[٣]، ولا تجدوا عليهم في سقطاتٍ لِسانِيَّةٍ تَجدُون لها مَحامِلاً مِن الخيْر. وعَلَيْكُمْ بالصُّحْبَةِ ولا تندُّوا[٤] عن رياض الجنَّةِ، فإنَّ سُفراءَ الحَقّ طوَّافون بكم ما وجدوا مَجلسَ عِلْمٍ أو ذِكرٍ إلا وتَنادَوا، أنْ هَلمُّوا إلى طِلْبَتِكُم،

١/ ولا تنبذوا لهم عن سواء: أيْ لا تُعلنوا يأسَكم عنهم ولا تُناصبوهم العِداءَ جهارًا. ومنه قولُ الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٨ ﴾ .

٢/ آصِرة: عاطفة، ورابطة بعواطف القُربَى والرَّحِمْ.

٣/ الخبر: هنا بمعنى العِلْم المتيقِّن.

٤/ تندوا: تبتعدوا.

فرفعوها إلى السَّماءِ لتعود إلى الذَّاكرين أجرًا عظيمًا بذِكْرِ المَلأ الأعلى لهم.

وإذا صَحِبْتُمْ –أَحْبَابِي– فاصحَبوا مَنْ إذا غبتَ حَفظكَ، وإذا حَضرتَ وَعظَكَ وأعانك على نفسِك، فهؤلاء هم الرجال، فإنْ ثَقِفْتُمُوهم[1] في طريق الله وآخيْتمُوهم في الله فعَلَيْكُمْ بالصَّفاءِ معهم والوفاءِ لهم، ولْيُبْدِي السِّرارُ[2] عن كَرَم النِّجَار[3]، فإنَّ لونَ الماءِ لونُ الإناء، وكلُّ إناءٍ بما فيه يَنْضَحُ. ولْتَتَحقَّقوا في صُحْبَتِكم لهم قولَ العارف:

إذا أنتَ صاحبتَ الرِّجالَ فكُنْ فَتًى   كأنَّكَ مَملوكٌ لِكُلِّ صَديقِ
وكُنْ مثلَ طَعْمِ الماءِ عَذْبًا وبارِدًا   علَى الكَبِدِ الحَرَّى لِكُلِّ رَفيقِ

فتَحَسَّسوا – أحْبَابي– طريقَ آخرتِكم وأنتم في الدنيا، لئلاَّ تَضلُّوا يومَ يَسعَى نورُ المؤمنين بين أيديهم وعن أيْمانِهم وعن شَمائلهم، بما قدَّموا مِن العَمَلِ الصَّالح والسَّننِ الحَميد.

الدُّنيا دارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَها

ولا تسبُّوا – أحْبَابي– دنياكم بغيرِ عِلْم، فَكَمْ مِنْ سائرٍ على الأرضِ والأرضُ تَلْعَنُه، وكونوا في ذلك على هُدًى. واعملوا بما علَّمكم صدرُ العارفين وبابُ مدينةِ سيّدِ الأولين والآخرين، مَنْ حُظيَ بمقام الأُخُوَّةِ مِنْ برزخ البرازخ، حقيقة الحقائق بحَقِّه المخلوق بهِ كلُّ كائنٍ، خاتم الحَقِّ على خزائنِ الوجودِ الحَقِّ سيدنا محمَّد المبعوث رحمةً للخلق–

١/ ثقفتموهم : ظفرتم بهم. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ ﴾ .

٢/ السِّرار: ما يُسِرُّه الإنسانُ ويُبطنه من أمره . ومنه قولهم:[هو طيِّبُ السَّريرة].

٣/ النِّجَار: الأصل.

يَقُول الإمامُ عليٌّ أبو الحسنين كرَّم الله وجهَه[1]: [إنَّ الدنيا دارُ صِدْقٍ لمَن صَدَقَها، ودارُ مَوعظَةٍ لمَنْ اتَّعظَ بها، مسجدُ أحبابِ الله، ومُصلَّى ملائكةِ الله، ومَهبطُ وحْي الله، ومَتجرُ أَولياءِ الله. اكتسبوا فيها الرَّحمةَ وربحوا فيها الجنَّةَ، فمَنْ ذا يَذمُّها وَقَدْ أذنتْ بمغيبٍ، ونادتْ بذاتها ونَعَتْ نفسَها وأهلَها، فَمثَّلتْ لهم ببَلائها البَلاءَ، وشوَّقتْهم بِسُرورِها إلى السُّرورِ، تروحُ[2] بعافيةٍ وتبتكرُ[3] بفجيعةٍ، ترغيبًا وترهيبًا، وتخويفًا وتحذيرًا. فَذمَّها رجالٌ مُقَصِّرون غداةَ النَّدامة، وحَمِدَها آخرون جادُّون

١/ علي بن أبي طالب: هو أبو الحسن علي بن أبي طالب [عبد مناف] بن عبد المطلب. وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أسلمتْ وهاجرت. أسلم وهو ابن سبع سنين، وكان غزير العلم، وشهد المشاهد كلها، ولم يتخلف إلا في تبوك فإن رسول الله ﷺ خلَّفه في أهله. أخرج الإمام أحمد، والشيخان، عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺقال يوم خيبر: {لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله عليه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله} فأعطاها علي. وعن سعيد بن المسيب قال: كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن. وروى ابن سعد في الطبقات عن أبي جعفر محمد بن علي أنه سئل عن صفة علي فقال: رجل آدم شديد الأدمة ثقيل العينين عظيمهما ذو بطن أصلع إلى القصر أقرب، قال: وكان يأتي السوق في الأيام فيسلم عليهم، فإذا رأوه قالوا:[بوذا شكنب أمد] . بالفارسية. قيل له: إنهم يقولون إنك ضخم البطن، فقال: إن أعلاه علم وأسفله طعام. وروى الخطيب عن أبي معشر قال: وقتل علي بن أبي طالب في رمضان يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة من رمضان سنة:[٤٠ هـ] وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر. [صفوة الصفوة، ج: ١ ص: ٣٠٨ .٣١١]. و [الطبقات الكبرى، ج: ٣ ص: ٢٧]. و[تاريخ بغداد، ج: ١ ص: ١٣٤ .١٣٦].

٢/ تروح: من الرَّواح وهو وقتُ العَشيّ، أو من الزّوال إلى الليل.

٣/ تبتكر: من البكور وهو وقت الصباح.

يـومَ القيامــة، ذَكَّــرَتْهم الــدنيا فتــذكَّروا، وحــدَّثتهم فَصــدَّقوا و وعظــتْهم فاتَّعظوا].

فالمغرورُ مَنْ غرَّه الشيطانُ وزيَّنَ لـه سُوءَ عَمَلِـه. فإنَّ كثيراً مِنْ عباد الله يَتجرَّمون على الدنيا كأن قَدْ وَتَرتْهم١ وغرَّرتْ بهِم، فهل غرَّرتْ بِهِم الدنيا؟! فَلَهُمْ في كلِّ يوم واعظٌ صامتٌ يعظُ بليغًا ويَقُول شديداً فتدمعُ أعينٌ ساعتَها وتبدو حُرَقٌ لحظتَها، ثم يعودون كأنْ لم يَقْرَعْهُمْ مِن الله قارعْ، وكلٌّ مِنْ بحر لذائذه كارعْ، ومِنْ كأسِ أمانيه جارعْ. ثم يَعتبون مِنْ بعدُ على الدنيا بالغرور!! أغرَّتهْمْ ياترَى بِمَصارع الآباءِ في البِلَى أم بمضاجع الأمَّهات تحت الثرى ؟!. فالمغرورُ واللهِ مَنْ لَهَى بعيداً، وطغَـى عَنيـداً، وتـَرَكَ رشـيداً، حتـى إذا أزفـتْ الآزفـةُ تمنَّـى علـى الله الأمـاني!! لا والله لـيس بأمـانيِّكم- إلا مَنْ رحمَ الله – ولكـن بأعمـالكم فبـادروا بهـا آجـالَكم فـإنَّكم تَقْدمون علَـى ربِّ بعِبَـادِه رؤوف رحـيم، لـو يؤاخذكم بما كسبتم لما تَرَكَ على الدنيا مِنْ أحدٍ، ولكن رحمتُه سبقتْ غضبَه.

فبادروه – أحْبَابِي- بالطيِّبِ مِن القول والصَّادقِ مِن العَمَلِ، فإنَّه إليه يصـعدُ الكلِم الطيِّـب والعَمَـلُ الصَـالِحُ يرفعـه. فـارتفعوا فـي ميـزان الله بأعمالِكم، فـإنَّ الأنسـابَ- أحْبَـابِي- لا تُغنـي عـنكم مِن الله شيئًا، إلا عـن مَوعِـدةٍ بالاسـتغفارِ والشَّـفاعة، بَـلْ لا أنسـابَ بيـنهم يومئـذٍ ولا يتســاءلون، إلا بعــد القَــرار فــي المنــازل، الصَّــالحين فــي منــازل الصَّالحين، والطَّالِحين في دركاتٍ مِنْ نار جهنم فيها خالدين.

١/ وَترتهم: أصابتهم بظُلمٍ أو مكروه.

فاتقوا الله- أحْبَابِي- وأجْمِلُوا في الطَّلبِ، وعليكم بالقصدِ والاعتدالِ في كلِّ شئ. وليكن أحدُكم واعظًا في حُضورِهِ وغيابِه يَكُنْ صادقًا مع ربه حقًّا، فإنَّ المريدَ الصَّادقَ في طلبه اللهَ المُخلصَ في ذلك يَعِظُ النَّاسَ بلسانِه إنْ نطقَ، وبسَمْتِه إنْ سَكتِ، وببَيْتِه إنْ غابَ!! تعلمونَ وعظَه يلسانه، وبحالِه، أمَّا عن وعظِه ببيته، فأقول: إنْ تذهبْ لمنزله فلا تَجدُ إلا مُصحفًا، أو حَصيرةً للصَّلاةِ، أو ركوةً للوضوء، أو قضيبَ أراكٍ للسِّواك، أو مسبحةً للذِّكْرِ. هذا إنْ كَانَ مِنْ أهل الكَفَّارات!! أما إنْ عَلاَ الدَّرجات فَفِي بيته حَلْقةٌ يُذْكَرُ فيها اللهُ، أو مجلسٌ يُتدارسُ فيه العِلمُ، يُطْعِمُ أهله الطعامَ ويُفْشِي بينهم السَّلامَ، وينفردُ بربِّهِ فيصلِّي بالليل والنَّاسُ نيامٌ، تعاهدَ حلقةَ الذِّكر ومجلسَ العِلْم، فعاهدَه النَّاسُ عليهما في الله وبالله، لم تجمعْ بينهم دنيا ولا أنساب. أَبَيْتُ هذا مِنْ النَّاس يَعِظُكمْ ؟ أمَّنْ إذا دخلتم بيوتَهم أَلْهَتْكُمْ عن ذِكْرِ الله وذِكْرِ الآخرة؟! فأنَّى تَلَفَّتَّ فلا تجدُ إلا تبذيرًا أو تتبيرًا. تبذيراً بالإنفاقِ في المباحات إنفاقًا يفوت الحَدَّ، وإنَّ المبذِّرين كانوا إخوانَ الشَّياطين، وتتْبيرًا بابتياع المُهلِكاتِ والمَآثم مِنْ خُمورٍ وغيرها.

وبمناسبةِ التَّبذير الذي تتميَّزُ به حياةُ اليوم تحضُرني طُرافةٌ حكيمةٌ، تُروَى عن سيِّدي سلمان الفارسي[١] تقول:[تزوَّج سيِّدُنا سلمان الفارسي

١/ سلمان الفارسي: كان اسمه الأول على ما حكى الحافظ أبو نُعيم:[ماهويه] وكان من أهل أصبهان، ويقال من رامَهُرْمُز، وقد تداولته أيدٍ كثيرة بعد ما استُرِقَّ إلى أن أتى رسول الله ﷺ في السنة الأولى من الهجرة وأسلم، وقصة إسلامه تروى بطرق كثيرة مطولة ومختصرة، وأول مشهد شهده سلمان رضي الله عنه الخندق، ويقال: إن حفر الخندق كان بإشارة منه. وخرج سلمان رضي الله عنه مع الصحابة والتابعين إلى العراق وحضر فتح المدائن، وكان والياً بالمدائن وبها توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه وقيل في خلافة علي رضي الله عنه سنة: [٣٦ هـ] قال

رضي الله عنه فتاةً مِنْ كِنْدَة، وهو أميرٌ على جيوش المسلمين في المدائن، فزُفَّت له عروستُه في منْزلٍ قد كَسَوْهُ بالسُّتور، فلما دخل بيتَه تلفَّتَ فيه، ثم خاطبَ أهلَ زوجته: هل بيتُكم محموم أم انتقلتْ الكَعبةُ إلى كِندة؟! فقالوا كِلا الأمرين لم يحدثْ. فقَالَ: إذَنْ فإنَّ النَّاسَ أولَى بهذا الكِسَاءِ مِنْ الجُدُرِ، وإنّي لأجِدُ مِن نفسي حاجةً لهذا الكساء، فقَدْ رأيتُني بمكةَ وأنا لا أملك إلا ثوباً واحداً، لا أفضي بحبوتي فيه إلى السَّماءِ خشيةَ أن تُرَى عورتي. ثم أمرَ بالمنزلِ فأُميطَتْ عنه السُّتُرُ، فبدَى خَشِناً ذا نتوءاتٍ، فقال: الآن أُقِيمُ ولكنَّه والله ظلَّ أخشَى أنْ أُسألَ عن نعيمه يوم الدِّين.!!!

فإذا كان هذا صَنيعُ مَنْ تشتاقُ له الجنَّةُ فكيف بكم- أحْبَابِي- وأنتم فِي زمانِ صارَ خيارُه "زيزفون[1] وشِرارُه شَوْكًا. لَأنتم والله لِزَادِ الرَّاكبِ أحْوَجُ، ولِبُلغةِ الطريقِ أشدُّ خَصاصة.

فعَلَيْكُمْ – أحْبَابِي- بالجِدِّ ولا تغترُّوا بطول الأملِ. واجتهدوا – أحْبَابِي- أنْ لا يُعْجِزكم التَّسرْبُلُ بِسِربالِ الحَقّ، ولا تُنازِعوه الرِّداءَ ولا تُجاذبوه الإزارَ، فإنَّ مَنْ نازعَ الحَقَّ رداءَه تَردَّى في مكانٍ سحيق، فتَخَطَّفتْه طيورُ الضَّعةِ والصَّغارِ، ومَنْ جاذبَ الحَقَّ إزارَه قصمَه الحَقُّ فعادَ حقيراً ذليلاً. فاسألوه السِّربال بأدبٍ- أحْبَابِي- فإنَّه هديةٌ مِنْه إليكم، وحَرِيٌّ بِمَنْ أهدَى بَداءةً أنْ يُحَبَّ. ولعلَّكم تسألون عن سِربالِ الحَقّ وأنتم تعرفون مِنْ قبلُ أنَّ العظمةَ إزارُه والكبرياءَ رداؤه، فلْتَعْلَمُوا أنَّ

أهل العلم بالسِّيَرِ كان سلمان من المعمَّرين أدرك وصي عيسى بن مريم عليه السلام وعاش مائتين وخمسين سنة ويقال أكثر. [الثقات، ج: ٣ ص: ١٥٧]. و [التدوين في أخبار قزوين، ج: ١ ص: ٧٨]. و [صفوة الصفوة، ج: ١ ص: ٥٥٥].

١/ زيزفون: الزيزفون: شجر له زهر أبيض، لا يعقد ثمراً. [المنجد، ص: ٣٠٨].

الرَّحمةَ سِربالُه، ما اتَّصفَ بهاعبدٌ إلا أحبَّه الله، لأنَّها هديَّةُ المحبوبِ وخِلْعتُه علَى مَنْ أحبَّ. وكُلُّنا يُحِبُّ أنْ يَرَى حبيبَه في ثوبه الذي أهداه له، وما نحن بأشدّ حُبًّا مِن الله لذلك. فتحلُّوا- أحْبَابِي- بثوبِ الرَّحمةِ يُحبِبْكم اللهُ، وبحُبِّ الله لكم يوضَعُ لكم القَبُولُ في الأرض، وفي وضع القَبولِ لكم في الأرض ثناءٌ بالخَيْرِ، وفي الثَّناءِ بالخيْرِ شَهادةٌ مِنْ شُهداء الحَقّ على خلقِه، وما شَهِدَ جاران لجارهما بالخيْرِ إلا دخلَ الجنَّة كَمَا جَاءَ في الأثر[1]. فأشهدوهم- أحْبَابِي- شهادةَ خيْرٍ وحقّ ليشهدوا لكم عند الحَقِ شهادةَ الحَقّ التي بها الفوزُ عند المَآل.

مَنْ استقامَ قلبُه استقامَ حالُه

ثم ماذا بَعدُ – أحْبَابِي- بعد الاستقامة علَى الطريقةِ الوسطَى وتَرْكِ الأباطيل، واللَّبْسِ في المأكل تَذرُّعًا بالشُّبهات، فإنَّ سَيَّدَنا ومولانا مُحَمَّداً رسول الله عليه أفضلُ الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم يعظكم بأنَّ {الحلالَ بيِّنٌ والحرامَ بيِّنٌ وبينهما أمورٌ متشابهِات لا يعلمها كثيرٌ مِن الناس،

١/ أخرجه ابن عدي في الكامل من حديث أنس بلفظ: { ما من مسلم يموت فيشهد له رجلان من جيرته الأدنين فيقولان: اللهم إنه لا نعلم إلا خيرًا إلا قبل الله شهادتهما وغفر له ما لا يعلمون}. [الكامل في ضعفاء الرجال ج: ٤ ص: ٩٨]. وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ قال: {ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من جيرانه الأدنين أنهم لا يعلمون منه إلا خيرًا إلا قال الله تعالى قد قبلتُ قولَكم وغفرتُ له ما لا تعلمون}. [فتح الباري ج: ٣ ص: ٢٣١]. وانظر: [مسند أحمد ج: ٢ ص: ٣٨٤]. و[صحيح ابن حبان ج: ٧ ص: ٢٩٥]. و[المستدرك على الصحيحين ج: ١ ص: ٥٣٤]. وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح. [مجمع الزوائد، ج: ٣ ص: ٤].

فمَنْ اتَّقى الشُّبهات فقَدْ استبرأ لدينه وعرضه، ومَنْ وقع في الشُّبهات كراعٍ يرعَى حول الحِمَى يوشك أن يواقعَه، ألا وإن لكلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وإنَّ حِمَى الله في أرضِه محارمُه، ألا وإنَّ في الجسدِ مُضْغَةً إذا صَلُحتْ صَلُحَ الجسدُ كُلُّه، وإذا فَسدتْ فسدَ الجسدُ كُلُّه ألاَ وهي القلبُ}[1].

فإنَّ مَنْ استقامَ قلبُه استقام حالُه، ومَنْ استقام حالُه، اهتمَّ بشأنه، ومَنْ اهتمَّ بشأنه حَسُنَ إسلامُه. فإنَّ {مِنْ حُسنِ إسلام المرءِ تَركُهُ مالا يعنيهِ}[2]. ومَنْ حَسُنَ إسَلاَمُهُ أدَّى ماعليه، ومَنْ أدَّى ما عليه لقيَ ما لَه، ومَنْ أُعطيَ ما لَه شكرَ، ومَنْ شكرَ زِيدَ، ومَنْ زِيدَ دخلَ رضوانَ الله، ومَنْ دخلَ رضوان الله كَانَ مع النبيين والصديقين والشهداءِ والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

واعْلَمُوا – أحْبَابِي– أنَّ الدنيا مَطيَّةُ الآخرة، فلا تَجْمَحَنَّ بكم إلى غايةٍ سواها. ودارُ عَمَلٍ فلا تَركَنوا إلى الكسلِ فيها، ودارُ عزَّةٍ للمؤمنين فلا تَهِنوا، ودارُ كرامةٍ للمسلمين المتَّقين فلا تَذَلُّوا فيها لغير الله، ودارُ فقرِ فلا تَغنوا بغير الله فيها. فإنَّ الغِنَى بغيرِ الله هو الفقرُ الحاضرُ.

واعجزوا عمَّا في أيدي النَّاسِ يحبُّونكم، وليكنْ أحدُكم عفيفًا أبيًّا فإنَّ اليدَ العُليا خيْرٌ مِنْ اليد السفلَى {ولايزال الرجل يسأل الناس حتَّى يأتيَ

١/ أخرجه الشيخان من حديث النعمان بي بشير رضي الله عنه [صحيح البخاري، ج: ١ ص: ٢٨]. و[صحيح مسلم، ج: ٣ ص: ١٢١٩].

٢/ أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [سنن الترمذي، ج: ٤ ص: ٥٥٨]. و[سنن ابن ماجه، ج: ٢ ص: ١٣١٥].

يومَ القيامةِ وليس في وجهه مُزعةُ لحم}[1]. ولْيَكُنْ أحدُكم قويًّا في دينِه صَليبًا في الحَقّ، حَريصًا على النَّفْع سَهلاً إذا باعَ وسَهلاً إذا اشترَى، فهو مملوكٌ ولا شِراءَ للمملوكِ! ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[2] فمَنْ باعَ نفسَه – أحْبَابِي– للحقّ تَرَكَ له المجالَ يَتصرَّف فيه وِفْقَ ماقَدَّر وأراد. وفي سقوطِ الإرادة عن العبدِ بُرُوزٌ لإرادةِ الحَقّ، وفي بروز إرادةِ الحَقّ تهذيبٌ للنَّفسِ وتجليةٌ للرُّوح وتنقيةٌ للوِجْدانِ، تنقيةً يصفو بها القلبُ فتنعكسُ عليه تجلِّيات الجمالِ مِن الحَقّ، فيغدو في رحاب الحَقّ أمينًا في سُرادقات عزِّه، مَضنونًا بهِ على غير أهله، ليس بطعَّانِ ولا لعَّانِ ولا فاحشِ ولا بذيء.

لِيَكُنْ قويُّكم عند الباطلِ ضَعيفًا

ليكن قَوِيُّكم– أحْبَابِي– عند الباطل ضعيفًا، وضعيفُكم في الحَقّ قويًّا. فإنَّ رسولنا الكَريم صَلَواتُ الله وسَلاَمُهُ عليه يَقُول في إرشادٍ لنا: {المؤمِنُ القويُّ خيْرٌ وأحبُّ عند الله مِن المؤمِنِ الضعيف وفي كُلٍّ خيْرٌ، احرص على ما ينفعك واستعِن بالله ولا تعجز، وإنْ أصابك شيءٌ فلا تقُلْ لو أنِّي فعلتُ كذا لَكَانَ كذا، ولكنْ قُلْ قَدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عَملَ الشيطان}[3]. لأنَّ فيها رؤيةً للنفس تُدْخِلُ في

١/ أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. [صحيح البخاري، ج: ٢ ص: ٥٣٦]. و[صحيح مسلم، ج: ٢ ص: ٧٢٠].

٢/ التوبة: ١١١.

٣/ أخرجه أحمد ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً. [مسند أحمد، ج: ٢ ص: ٣٧٠]. و[صحيح مسلم، ج: ٤ ص: ٢٠٥٢].

رُوعِها[1] أنَّها أحكمُ مِن الله وأكثر منه توفيقًا، إذ لو فعلتْ ماكان جائلاً فيها لما وقع ما وقع. وهل ما وقع إلا مُرادُ الله واختيارُه!، فإنْ كان الواقعُ مُرادَ الله، فالعبدُ راضٍ بقضاءِ الله لأنه يؤمِنُ إيماناً يرقَى به إلى مقام الإحسانِ أنَّ الله حكيم قدير، ومَنْ لم يدرك ذلك فإنَّ "اللَّو" تفتحُ عملَ الشيطانِ عنده لأنَّ في ذلك تَحسُّراً وتلهُّفاً على الأمور الدنيويَّة، إمَّا رغَبًا وإمَّا رهَبًا، دون أن يوافق الأسباب بَلْ يتمنَّى مالا مَطمعَ في وقوعِه، ومالم يتِّخذْ وسائلَه، بَلْ لم يَسلك طريقَه، وعند الفوات يرجع لنفسه بالحسرات، يُردِّد لو أنِّي فعلتُ كذا لكان كذا، فهل هنالك عجزٌ أشدُّ مِنْ ذلك خطورةً على الإنسان؟! تَكْمُنُ خطورتُه في أنَّه يرضَى باستعبادِ الشيطان له واتباع هواه، مُعرِضًا عمَّا أمره به ربُّه وقضاه، وهو الخليفةُ الإمام!!.

فلا تفتروا- أحْبَابِي- عن حرب الشيطانِ والهوَى، فإنَّ الإمامَ لا يَقِفُ؛ والملك لا يكُفُّ عمَّا ثبتَ، والأجلُ لا يُنْسَأُ[2]. فبادروه بصالح الأعمال وتجنَّبوا الاغترارَ بالصِّحةِ والأمنِ والفراغ. فإنَّ الصِّحَّةَ في غير الله سقمٌ، والأمْنَ إلا في جَنابِ الله شقاءٌ، والفراغَ إلى غيرِ الله شغلٌ.

ومِنْ أعظم الاغترارِ - أحْبَابِي- التَّمادي في الذنوب على رجاء العفو في غير توبة ولا ندامة، وتوقُّعُ القُربِ مِن الله تعالى بغير طاعة، وانتظارُ أكُلِ الجنة ببذرِ النار، وطلبُ دار المطيعين بالمعاصِي،

١/ روعها: الرُّوعُ: القلب والعقل، يقال: وقع ذلك في رُوعي: أي في خَلَدي وبالي.والرَّوْعُ: الفَزَع. [مختار الصحاح الإصدار، ص ٢٢٦ - ٢٦٧].

٢/ لا ينسأ: لا يؤخَّر أو لا يُزاد.

وانتظارُ الجزاء مِنْ غير عَمَلٍ، والتَّمنِّي على الله عزَّ وجلَّ الأماني مع العجز والإفراط بكُلِّ ذلك.

ترجو النَّجاةَ ولم تَسلكْ مَسالكَها   إنَّ السفينةَ لا تجري على اليَبَسِ[1]

كونوا – أحْبَابِي– مِن المؤمنين الذين لم يَلْبِسوا إيمانَهم في الأرض بظُلْم تكونوا مِن المؤمنين حقًّا في السماءِ. وَقَدْ جَاءَ في الأثر: {لا يَكُون العبدُ في السَّماءِ ولا في الأرضِ مؤمِنًا حَتَّى يَكُون وصولاً للحقّ}. ولن ينفعَ وَصْلٌ صاحبَه إلا بالإسلام، ولن يتمَّ إسلامُ أحدٍ حَتَّى يَسْلمَ النَّاسُ مِنْ لسانِه ويدِه، ولا يكون على ذلك حَتَّى يغدو عالمًا، ولا ينفعُه عِلمٌ مالم يكن به عامِلاً، ولا يؤتي العَمَلُ ثمارَه إلا مع الزُّهْدِ، ولنْ يتأتَّى الزُّهْدُ بغيرِ ورع، ولا يكون وَرِعًا حَتَّى يكونَ متواضعًا، ولا يكون متواضعًا حَتَّى يكون عفيفًا مُعتَزًّا بنسبته إلى الله.

ألا وإنَّ اللهَ لا يُنسَبُ بالأرحام وإنَّما يُنسبُ بالقرآن. فكونوا– أحْبَابِي– مِنْ أهلِ القرآن تكونوا مِنْ أهل الله وخاصَّته، ولن يتمَّ ذلك إلا بالمَعرفة، ولنْ يَعْرِفَ أحدٌ نفسَه إلا إذا عقَل مِن الحَقّ في الخلقِ، ولن يَعقِلَ بهذا المستوَى إلا إذا فَنِيَ عَنه وبَقِيَ بالله، ومَنْ كان كذلك

---

[1] روى أبو حاتم وأبو الفرج عن أبي العتاهية أنه دخل على هارون الرشيد فقال له عِظني فأنشده:

لا تأمن الموت في طَرْفٍ ولا نَفَسِ   إذا تَسَتَّرْتَ بالأبواب والحرس
واعلم بأنَّ سهام الموت قاصدة   لكلِّ مدَّرعٍ منا ومُتَّرسِ
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إنَّ السفينة لا تجري على اليَبَسِ

قال: فخرَّ الرَّشيدُ مغشيًّا عليه. و[روضة العقلاء، ج: ١ ص: ٢٨٥]. [الأغاني، ج: ١٩ ص: ١٥].

استحقَّ أنْ يكونُ حيًّا، وماعَدَا ذلك فَهُمُ الأمواتُ وإنْ كانوا على الأرض يمشون. والعارفُ عَرْشِيٌّ فرشيٌّ[1] لا تقيِّده البرازخ[2].

النفسُ قوَّةٌ حاجبة عن الحقِّ

عَلَيْكُمْ – أحْبَابِي– أن تعبدوا الله بشرطِ العِلْم، ولا ترضوا عَن أنفُسِكُمْ بشيء لأنَّ النَّفسَ قوةٌ حاجبةٌ، ومتَى ما رَضِيَ الإنسان بشيء مِنْها ـ زيَّنهُ الشيطانُ له ـ أقام عليه، ومَنْ أقام علَى شيءٍ فاتَه الحَقُّ، فهو كُلّ يوم في شأن، ولا يشغله شأنٌ عن شأنٍ. فمَن أقامَ على شهواتِ النَّفسِ وهواها فقد خَسِرَ، لأنَّ مَنْ تَبِعَ هوى النَّفسِ قاده إلى دركات النار، ومَنْ استعبدته الشهوات قادتْه مَذمومًا مَخذولاً إلى مهاوي الشَّرِّ وقيعان العذاب. فاتقوا الله في أنفُسِكُمْ – أحْبَابِي– وليقبضن الورعُ أيديكم عما اشتبهَ أصلُه والتبسَ مصدرُه، فإنَّ مَنْ تَرَكَ الشُّبهات فقَدْ استبرأ لدينه.

وأحذِّركم– أحْبَابِي– أنْ يدخل أيُّ مِنْكم حربًا الغالبُ فيها شرٌّ مِنْ المغلوبِ مَكانًا أتدرون ماهي؟! إنها المشارَّة والمخاصمة واللّجاج. ولتعلموا أنَّ {المسلمَ مَنْ سَلِمَ المسلمون مِنْ لسانه ويده}. فإذا جَهِلَ عَلَى أحدِكم أيٌّ مِن النَّاسِ أو فرَّط عليه، فلْيستعذ بالله مِن الشيطان

١/ عرشي فرشي: جامعٌ بين خصائص الروح –التي هي من عالم الأمر– وهي الربَّانية، وبين خصائص الجسد الترابيَّة وهي البشريَّة؛ فالعارف يعطِي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه وِفقَ ما يُرضِي ربَّه. كما أنَّ العارفَ لا تحجزه الحواجزُ المكانية ولا الزمانية، لأنَّه أُطْلِقَ مِنْ قيدِ الزمان والمكان حين غلبتْ وطغَتْ رُوحانِيَّتُهُ على بَشريَّته، فصارَ بأحكامِ الرُّوحِ يُهيمِنُ على قوانين المادَّةِ ويُسيطرُ عليها وينفذُ منها دون ما قيدٍ لها عليه.

٢/ البرازخ: بمعنى الحواجز.

الرجيم، فإنَّه نزغٌ مِن الشيطان قَدَّمهُ، ودواؤُهُ الذِّكْرُ وليدعو لصاحبهِ الذي ظلمَه خيراً، فإنها دعوةٌ لاينقطع أجرها. وإذا سابَّكم أحدٌ – أحْبَابِي– أو شاتمكم فلْيقُلْ كُلُّ مِنْكم "إنِّي نذرت للرحمن صومًا فلن أكلِّم اليوم إنسيًّا، بما يُحِطُّ مِنْ حسناتي أو يُريقُ ماء وجهي".

وأحذِّركم – أحْبَابِي– شكوى الأَيَّام والتسخُّط عليها، لأنَّه مَنْ أصبحَ وهو يشكو ضِيقَ المعاش فكأنَّما أصبح وهو يشكو ربَّه الذي ضمِنَ له الرِّزق وقدَّره جاهلاً أنَّ الخير فيما اختارَ الله. وهذا رسولُه الكريم صَلَوَاتُ الله وسلامُه عليه لا تَقِدُ في بيته نارٌ للطبخ الليالي الطِّوال، وهو الذي لو شاء لجعل له الحَقُّ بطحاءَ مكة ذهبًا، ولكنَّ الكفافَ والقناعةَ عيشةُ الأَنبياءِ والصديقين والصالحين.

ومَنْ أصبحَ حزينًا لأمور الدنيا فكأنَّما أصبحَ ساخطًا على الله. ومع ذلك فإنَّ {مَنْ تواضعَ لغنِيّ لِغِنَاه ذهبَ ثلثا دينه}[1] فليس في الكفرِ والسَّخط والتَّمرُّدِ والغِنَى بغيرِ الله عِزَّةٌ، وإنَّما العِزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين. فكونوا– أحْبَابِي– أعزَّاءَ بِعِزَّةِ الحَقّ، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَوْنَ إن شاء الله. واضربوا في الأرض وابتغوا ماكتب الله لكم، فإذا قضيتم أعمالكم فلا تركنوا للراحة ولاتناموا عن الحَقّ ليلاً، فإنَّ النَّوم للمشتاق بَدْءُ جفاءٍ؛ بل اذكروا الله كذكركِم آباءَكم أو أشدَّ ذِكرًا.

١/ رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود رضي الله عنه. والديلمي عن أبي ذر رضي الله عنه [شعب الإيمان، ج: ٧ ص: ٢١٤]. و[الفردوس بمأثور الخطاب، ج: ٣ ص: ٤٦٧].

وأحذِّركم – أحْبَابِي– أنْ تكونوا ممِنْ يَقُول ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وماله في الآخرة مِنْ خلاق. بل شَمِّروا– أحْبَابِي– فإنَّ الأمرَ جِدٌّ، وتأهَّبوا فإنَّ الأمرَ قريبٌ، وتزوَّدوا فإنَّ السَّفْرَ بعيدٌ، وخفِّفوا أثقالَكم فإنَّ وراءَكم عقبةٌ كؤود، لا يقطعها إلا المُتخفِّفون، الذين نظروا إلى باطنِ الدنيا حين نظرَ النَّاسُ إلى ظاهرِها، وعاشوا فيها كعابرِ سبيلٍ، لم يشغلهم ما ضَمِنَ لهم الحَقُّ عمَّا أمرَهم به.

فاجتهدوا– أحْبَابِي– فإنَّ بين يدي الساعةِ أموراً شِداداً وأهوالاً عظاماً فأعِدُّوا لكلِّ ذلك الإيمان الصَّادق والعَمَلَ الخالص والخُلقَ الحَسَنَ وعضُّوا عليه بالنَّواجذ وأكثروا مِنْ ذِكر الله، وأكرِهوا عليه النَّفسَ، فإنَّ عذاب ساعةٍ مِنْ الليلِ أخفُّ مِن العذابِ في يوم مِقدارُه خمسون ألف سَنة. واعلموا– أحْبَابِي– أنَّ في القيامة جولةٌ وحيصةٌ لا ينجو مِنْ مرارتها ومعاينة الخسران فيها إلا مَنْ أرضَى الله بسخط النَّفسِ.

ومُروا – أحْبَابِي– أهليكم وزوجاتكم وأبناءكم وبناتكم بالصَّلاةِ، فإنَّ البيْتَ يقوم أهلُه لله قانتون يرزقه الحَقُّ رزقاً حسنًا مِنْ حيث لا يحتسبون، ويجعل عليه سِترًا مِن الأمِنْ والحفظ، لا يَلِجُه الشيطانُ ولا يَظهَرُه ولا يستطيع له نَقْبًا.

عليكم بالرِّباط أحبابي

عَلَيْكُمْ – أحْبَابِي– [بإسباغ الوضوءِ علَى المَكاره وكثرةِ الخُطَى، إلى المساجدِ، وانتظارِ الصَّلاة عقبَ الصَّلاة فذلكم الرِّباط –أحْبَابِي–. والرِّباطُ هو تجرُّد النَّفسِ عن علائقِها وبذْلِها في سبيل الله في رضىً وحبٍّ وإيثار لما عند الله. ومَنْ ألزم نفسَه بطاعة الله على الدَّوام، وواظبَ على ما ذَكَرَ الرسولُ صلواتُ الله وسَلاَمُهُ عليه مِنْ أنواع

القُرُبات، ورَبَطَ نفسَه بها بحيث لا يُخِلُّ بِها فهو المُرابط- أَحْبَابِي- بشهادةِ الرسول ﷺ والرِّباطُ في كلِّ خيرٍ خيرٌ. ولئن كَانَ الرِّباط في الأعمال الصَّالحات هو ظَلْفُ[1] الإنسانِ نفسَه عمَّا تُحِبُّ صَبراً مع الحَقّ، فهو في الثغور بَذْلُ الإنسانِ نفسَه وبيعُها لله. فعَلَيْكُمْ بالرباط – أَحْبَابِي- وجاهدوا في الله حقَّ جهاده. واعلموا قولَ رسولنا الكَريم صَلَوَاتُ الله وسَلاَمُه عليه {كُلُّ إنسانٍ مات يُختَمُ له عَمَلُه إلا المُرابط فإنَّه ينمو إلى يوم القيامة}. والرِّباطُ فوق ذلك -أَحْبَابِي- جُنَّةٌ مِنْ عذاب القبر كَمَا جَاءَ في الأثر[2]؛ وَقَدْ علمتم أنَّ ثغورَ المسلمين والتَّجرُّدَ في حمايتها رِباطٌ، وإسباغ الوضوء على المكاره رباطٌ، وكثرة الخُطَى إلى المساجد رِباطٌ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة رِباطٌ. فهل يَعجزنَّ أحدُكم أن يكون مِنْ المرابطين ؟!.

اجتهدوا أَحْبَابِي و﴿ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[3]

١/ ظلف الإنسان نفسَه:صامَ وارتفع بنفسِه عن الدَّنايا. وظليفُ النفسِ نزيهها المترفِّع عن الصَّغائر.

٢/ أخرج أبو داود والحاكم عن فَضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: {كل الميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتَّان القبر}. وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. [سنن أبي داود ج: ٣ ص: ٩]. و[المستدرك على الصحيحين ج: ٢ ص: ٨٨].

وأخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية عن العِرباض رضي الله عنه [المعجم الكبير، ج: ١٨ ص: ٢٥٦]. وقال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات. [مجمع الزوائد، ج: ٥ ص: ٢٩٠].

٣/ آل عمران: ٢٠٠

وأخيرًا أحبابي وأبنائي

واعلموا أخيرًا– أحْبَابِي– وأبنائي:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[1]

أستودعُكم اللّهَ – بَنِيَّ– وأحْبَابِي– وبأعينِ الله أنتم – أبنائي– وأحبَّائي– فنحنُ السَّابقون وأنتم اللاحقون، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فهو الصَّاحبُ في السَّفرِ والرَّقيبُ عليكم، ولْيَكُنْ الحَقُّ وَليًّا لكم، فاتَّخِذوه وَليًّا فإنَّه نِعْمَ المولَى ونِعْمَ النَّصير.

١/ الأحزاب: ٣٥.

جدول المحتويات